دروسٌ

في مَنْهَجِ الحرَكَةِ

المؤلف: أبو عبد الرحمن الصومالي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمّد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

أما بعـــد :-

فإن المسلم المعاصر المدرك لحقيقة دينه إدراكاً صحيحاً يشعر بالعزلة في البيئة الجاهلية المعاصرة.

إن عقيدته تعلّمه أن الله هو الملك الواحد القهار الذي يجب أن يُطاع ولا يُعصى له أمرٌ، ولكن بيئته تقول له: لا، هذا قصور في النظر وقلّة في العقل، وأن الله هو ملك في السماء وإن للأرض ملوكاً ورؤساء يُطاعون ولا يُعصى لهم أمر.

إن عقيدته تعلِّمه أن الله وحده هو واضع الكتب والمناهج والنظم للحياة البشرية كلّها، ولكن بيئته تقول له: لا، إن هذا جمود ورجعية، فآخر كتاب أنزله الله قد مضت عليه قرون كثيرة، و لم يعد صالحاً لتلبية حاجات الحياة التشريعية، فلا بدّ للعلماء والخبراء والمتخصِّصين من أن يأتوا بتشريعات صالحة للحياة البشرية المتطورة.

إن عقيدته تُعلِّمه أن الله وحده هو الذي يضع للناس قيماً وأخلاقاً ثابتة في جميع العصور، ولكن البيئة تقول له: لا، إن القيم والأخلاق لا يجوز أن تكونا ثابتتين، وإنما هما يتطوّران مع الزمن وتتأثّران بمستوى المعيشة للبيئة، فما كان عيباً ورذيلة في بيئة خاصة أو زمن خاص قد لا يكون كذلك في بيئة أخرى أو زمن آخر .

إن عقيدته تعلِّمه وجوب التجمّع على آصرة العقيدة، وأن المؤمنين اخوة وأن أكرمهم عند الله أتقاهم، ولكن البيئة تقول له: لا، إن فكرة القومية والوطنية رائجة في العالم وليس لها بديل في الواقع الحاضر فالصومال للصوماليين والمصر للمصريين والعراق للعراقيين .. الخ .

إن عقيدته تعلِّمه أن المؤمن أخ للمؤمن وأن الكافر عدوٌّ للمؤمن، ولكن البيئة تقول له: لا، إن الحياة البشرية قد تطورت كثيراً عن هذه الفكرة وأصبح التعامل ممكناً بين أهل الملل المختلفة، وقد اتّفقوا على رعاية الحقوق الإنسانية، وعدم التدخّل في الشئون الداخلية لكل قوم، وعدم الدخول لحدودها الجغرافية بغير إذنها، وأن يكون هناك سعي لإحياء المودّة والتعاطف والحبّ بين البشرية كلّها. فلم يعد للجهاد في سبيل الله مجال في هذه الحياة العصرية الراقية.

ومن هنا فإن المسلم يشعر بالغربة والعزلة في بيئته التي نشأ فيها لأجل ما في منهجه الفكري والعملي ومنهج البيئة من اختلاف وتضاد. وقد أصبح هذا حال المسلم الحقيقي في البيئات الجاهلية وقد استحكم الخلاف الفكري والعملي بينه وبينها، وعرف استحالة التعاون والتفاهم معهم ما داموا على ذلك البُعد والشرود عن منهج الله للحياة.

وهذه "دروس في منهج الحركة الإسلامية" وضعت لتعين المسلم على معرفة الطريق الصحيح الذي يجب عليه سلوكه ومعرفة الأصول الفكرية التي يقوم عليها منهجه. وخطوات هذا المنهج المستمدة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ليكون.

(أولاً) في منجى من ضغط المجتمع الجاهلي الذي يدعوه إلى السير مع القطيع الضال مهما تكن النتيجة.

(ثانياً) داعية إلى الخير يخرج أهل الجاهلية من الظلمات إلى النور بإذن الله.

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) الجاهلية

كلمة الجهل هي مصدر "جهِل يجهل جهلاً". وكلمة الجهل يراد منها معنيان في لغة العرب:
أ- عدم العلم ب- عدم اتّباع العلم

والجاهل هو الذي لا يعلم حقيقة شيء كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] .

والجاهل كذلك هو الذي يعلم الحقيقة ولا يتّبعها كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة:٦٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يوسف: ٨٩] .

وقال تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣] .

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وجهِل عليه: معناه اعتدى عليه وظلمه كما في الحديث: "اللهم إنِّي أعوذ بك أن أضلَّ أو أُضلّ أو أزلّ أو أُزلّ أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يُجهل عليَّ" [أهل السنن] .

وكما قال الشاعر الجاهلي {عمرو بن كلثوم}

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والجاهلية: اصطلاح قرآنيّ يراد منه عدم اتّباع ما أنزل الله من العلم في العقائد والأحكام والأخلاق. كما قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦] .

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]

والجاهلية هي ضدّ الإسلام. لأنّ الإسلام الذي جاءت به رسل الله هو: اتّباع ما أنزل الله من العلم في العقائد والأحكام والأخلاق والكفر بما يخالف هذا العلم من هوى البشر .

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر: ١٧].

والإنسان المسلم قد تكون فيه خصلة من خصال الجاهلية. ولا ينتقض أصل إسلامه بذلك ما لم يكن مستحلاًّ للمخالفة، ولذا جاز أن يُقال للمسلم المخالف "إن فيه جاهلية" كما تدلّ على ذلك الأحاديث النبوية:

قال ﷺ لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه : "إنّك امرؤ فيك جاهلية" [متفق عليه].

وذلك لما عيّر رجلاً بأمه وقال: يا ابن السوداء.

وقال ﷺ: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونَهنّ: الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة" [مسلم]

وهذه الأحاديث كالأحاديث التي تبيّن أن المسلم قد تكون فيه شعبة من شعب الكفر، وذلك إذا هو ارتكب محرماً أو ترك واجباً مثل:

قال ﷺ: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض" [متفق عليه].

وقال ﷺ : "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" [متفق عليه] .

فدلّت الأحاديث الصحيحة على أن المسلم قد تكون فيه خصلة من خصال الجاهلية أو شعبة من شعب الكفر. ولا فرق بين العبارتين، لأن الجاهلية هي الكفر بالله؛ فمرتكب الكبيرة إذاً فيه جاهلية أو فيه كفر. وليس المراد من ذلك أنه خرج عن الملّة بمجرّد ارتكابه لها .

أما من اختار شرائع الجاهلية على شريعة الله وترك ما أنزل الله من العلم في العقائد أو الأحكام أو الأخلاق، فلا يكون إلاّ كافراً خارجاً عن ملّة الإسلام وإن صلّى وصام وزعم أنه مسلم. ومن جادل عنه لا يكون إلاّ مجادلاً بالباطل:

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٦].

فمن المجادلين عن أهل الجاهلية من يقول: "إن من صحّ اعتقاده لا يكفر باتّباعه وعمله بتشريع غير الله" .

وهي شبهة مضلِّة ينخدع بِها قليلوا المعرفة بالإسلام، والأدلّة التي تجيب عنها كثيرة جدّاً، ويستطيع المسلم أن يعرف بُعدها عن الحقيقة وضلالها من وجوه كثيرة، إذا تدبّر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة وما أجمع عليه المسلمون في القرون المفضَّلة، ويكفي في ردّ هذه الشبهة وإبطالها وجه واحدٌ من أوجه الأدلّة الصحيحة الآتية :

أ) منها : بيّن القرآن أن المتبِّع لتشريع غير الله النابذ لشريعة الله ليس من الذين أخلصوا الألوهية لله، وإنما هو يعبد "إلهاً" و"رباً" غير الله .

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣١] .

وقد فسّر النبي ﷺ هذا الاتّخاذ للأرباب بطاعة العلماء في التحليل والتحريم المخالف لأمر الله كما ثبت في حديث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه .

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

فصرحت الآيات بأن المتّبع لتشريع غير الله قد عبد "إلها" و "رباً" غير الله، ولم يحقّق التوحيد المأمور به، فصار من المشركين، ولا فرق بينه وبين الذي يعبد المسيح ابن مريم ويستغيث به في جلب المنفعة أو دفع المضرّة.

ولما وقعت اليهود والنصارى في هذا النوع من الشرك لم ينفعهم انتساهم إلى الإسلام لله واتّباع ملّة إبراهيم وموسى عليهم السلام.

فدلّ ذلك على أن من وقع فيما وقعوا فيه من الشرك من هذه الأمة لا ينفعه انتسابه إلى الإسلام لله واتّباع ملّة محمّد ﷺ، لأنه ليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب، وإنما يتفاضل الناس في الإيمان والاستقامة، وتحقيق العبودية لله بلا شريك. فإذا عرفت هذا وأنّ "أهل التوراة" أصبحوا مشركين بتقديمهم آراء العلماء على كتاب الله. فمن الجهل والغباوة الظنّ بأن "أهل القرآن" سيظلّون مسلمين غير مشركين وهم يقدّمون آراء الكفار الجهال على كتاب الله في باب التشريع والتقنين للعباد .

وإذا عرفت من كتاب الله أن اتّباع غير الله في التشريع شرك مخرج عن الملّة، فاعرف أيضاً أن المشرك لا يكون أبداً صحيح الاعتقاد، ولا بدّ من أن يكون في قلبه من الشكّ والاستكبار ما جعله يفضِّل شرائع الكفرة على شريعة الله. وإذا كان هذا التابع لتشريع غير الله عالماً بالإسلام وما جاء به من العقائد والأحكام علماً نظرياً، فإن ذلك لا ينفعه شيئاً ولا يصير به مسلماً حتى يعتقده. فإن هناك فرقاً بين المعرفة النظرية والاعتقاد الجازم المنشئ للتطبيق والعمل.

فمن هنا تعرف فساد قولهم: "إنّ من صحّ اعتقاده لا يكفر باتّباعه وعمله بتشريع غير الله". لأنه لا يتّبع ويعمل بتشريع غير الله مع وجود تشريع الله إلاّ الكافرون المشركون الشاكّون المستكبرون.

[ب] ومنها :

قصة إبليس اللّعين، هذه القصة المذكورة في القرآن في عدّة مواضع للاتّعاظ والاعتبار، فقد أخبرنا الله أن هذا المخلوق كان قبل كفره مع الملائكة عباد الرحمن المسبِّحين باللّيل والنهار، الذين لا يسأمون، وأنه أصبح كافراً خارجاً عن الإسلام لما أبى واستكبر عن الانقياد لحكم واحد من أحكام الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤] .

وقال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩] .

فدلّت القصة على أن من ردّ أمر الله واستكبر عن الانقياد لحكم واحد من أحكامه واتّخذ خلافه منهجاً يستحسنه فإنه يصير بذلك كافراً خارجاً عن ملّة الإسلام، مهما كانت معرفته بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر عظيمة، كمعرفة إبليس، فإنه كان ذا معرفة عظيمة بالله، وقد خاطب الله بالربوبية والخلق قائلا: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ﴾ وقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾. وكان كذلك عارفاً بالمعاد معترفاً بقدرة الله على بعث الأجساد. فقال: ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤].

وكان كذلك عارفاً بالملائكة، وكان من بينهم لما صدر من الله الأمر بالسجود لآدم عليه السلام ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ٣٠-٣١].

وهو كذلك عارف بالحقّ الذي أنزله الله في كتبه على ألسنة رسله، وكان و لم يزل في معركة ضدّ رسل الله والمؤمنين، يريد أن يصرف الناس عن الصراط المستقيم وهو القائل: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

ومع معرفته هذه لُعن وطُرد من رحمة الله وصار رأساً في الكفر لما أبى واستكبر عن تنفيذ أمر واحد من أوامر الله،ثم تمحّض بعد ذلك للشرّ والإغواء.

فإذا كان ذلك كذلك فكيف يكون المستكبرون المعاصرون أحسن حالاً وأكرم منْزلة من إبليس اللّعين، وهم لا يعرفون أصول الإيمان كمعرفته، ولا يخالفون أمراً واحداً كما وقع منه، وإنما هم يخالفون كتاب الله المليء بالأوامر والنواهي، ويرمونه بالجمود والعجز عن مسايرة الواقع بلسان الحال أو المقال، ويستحلُّون قيادة الأمم والجماعات بآراء وكتب ما أنزل الله بِها من سلطان.

ولا شكّ في كون سيئاهم من سيئات إبليس داعيهم إلى الشرك والضلال. ولكن ينبغي أن لا ننسى أن عدوّ الله صار كافراً بأقلّ مما يصرُّون عليه وهم يزعمون أنهم مسلمون.

أما قصة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة المحرّمة فإنها تدلّ على أن المؤمن قد يغفل وينسى فيقع في الحرام وهو لا ينوي الكفر واستحلال المحرّمات، وتدلّ على أن الله يقبل توبة التائبين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥] .

والمؤمن الواقع في الحرام التائب من الذنب يشبه من غشيه ظلام اللّيل فحجبه عن رؤية الطريق فعدل عنه ثم جاءه من الله نور يكشف الظلمات فأبصر به الطريق فعاد من قريب. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١] .

[جـ] ومنها:

قول الله تعالى عن الحاكمين بغير ما أنزل الله ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤] .

فقد صرحت الآية بكفر الحاكم الذي لا يلتفت إلى أحكام الله وإنما يحكم بين الناس بِهواه أو هوى غيره، جاعلاً ذلك شريعة لهم واجبة الاتّباع في حدود حكمه وسلطانه كما هو واقع من

الحكام في هذا العصر. ولم يكن بين علماء المسلمين في جميع العصور اختلاف في كفر الداعي إلى اتّباع أحكام التوراة أو الإنجيل التي بأيدي أهل الكتاب، ونبذ أحكام القرآن. ولا في كفر المستجيب لمثل هذه الدعوة، بل إن ذلك كان من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام الذي تعلمه الخاصة والعامة .

والحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله في هذا العصر يتركون القرآن ويتّبعون النظم والقوانين الوضعية المستوردة من أهل الغرب، المنسلخين من الدِّين الكافرين بالله علانية. والآية ليست خاصة ببني إسرائيل كما يظنّه بعض الناس، وإنما هي تقرير إلهيٌّ لا يتقيّد بزمن ولا مكان. ولقد سمع حذيفة بن اليمان ﷺ من يقول هذه المقالة فردّها قائلاً: "نعم الاخوة لكم بنوا إسرائيل، إن كانت لهم كل مرّة ولكم كلّ حلوة، كلاّ والله لتسلكنّ طريقهم قدر الشراك. [ابن جرير].

وعن إبراهيم النخعي أنه قال عن هذه الآية: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ** ﴿٤٤﴾﴾ "نزلت في بني إسرائيل، ورضي لكم بِها" [ابن جرير].

والدساتير الوضعية التي يحكمون بِها في هذا الزمن تشبه "الياسق" الذي وضعه "جنكزخان"، والذي قال عنه الإمام ابن كثير في تفسيره: "فمن فعل ذلك فهو كافرٌ يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكّم سواه في قليل ولا كثير".

أما الحاكم المسلم الذي يحكم بما أنزل الله ولا يعتقد شريعة مخالفة لشريعة الله إذا جار في قضية بين اثنين فحابى أحدهما وظلم الآخر أو عاقب أحداً بشبهة أو ظنّ فهو آثم ظالم مرتكب للكبيرة ولا يخرج من الملّة حتى يستحلّ ذلك ويتّخذه شريعة مقدّمة على شريعة الله، وعن مثل هذا الحاكم المسلم قال ابن عباس رضي الله عنهما: "هي به كفرٌ وليس كفراً بالله وملائكته وكتبه ورسله" [ابن جرير] .

وقال عطاء:"كفرٌ دون كفرٍ وفسق دون فسق وظلم دون ظلم" [ابن جرير]. وقال طاوس: "ليس بكفر ينقل عن الملّة". [ابن جرير] .

هذه عن الحكم بغير ما أنزل الله، أما التحاكم إلى شريعة غير شريعة الله فقد قال الله عن المتحاكمين: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ**﴾ [النساء: ٦٠].

إلى أن قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وقد نزلت هذه الآيات فيمن لم يرض بحكم الله في قضية معينة، فدلّت على نفاق أولئك القوم، وأن ما يدّعونه من الإيمان زعم باطل لا حقيقة له.

ووجهت الآيات أنظار المؤمنين نحوهم ليكونوا منهم على حذر واحتراز، ولا ينخدعوا بدعاويهم الكاذبة واعتذاراهم بحسن القصد والنية.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٩] .

وإذا بيّن الله نفاق قوم فقد بيّن كفرهم وعدم إيمانهم. إلاّ أن للمنافقين أحكاماً خاصة بهم يُعاملون على أساسها في الدنيا، وهي تخالف أحكام الكفار الذين يصرحون ويظهرون ولا ينافقون.

والذين نبذوا كتاب الله في هذه الجاهلية الحديثة ليس كفرهم كفر نفاق، وإنما هو كفر ظاهر وردّة صريحة. فهم :

(أولاً) يعلنون أن التشريع يتطور كما تتطور الآلات والصناعات، ومعنى العمل بكتاب الله وتلقي التشريع منه هو -في نظرهم- الجمود والتخلّف عن مسايرة الحياة العصرية.

(ثانياً) لا يتعلّمون كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولا يأمرون بتعلّم ذلك بينما هم يرسلون الطلبة إلى الخارج، وينفقون عليهم ليقضوا السنوات في تعلّم النظم والقوانين البشرية الوضعية التي افتتنوا بها وظنّوها أرقى من شريعة العليم الخبير، كي يصبحوا بعد ذلك قادة وقضاة ومحامين يحتلُّون أسمى المراكز ويُنظر إليهم بعين التقدير والاحترام .

(ثالثا) ينتقصون شريعة الله ويقلّدون الكفار الغربيين في استنكارهم لجوانب منها كقطع يد السارق، ورجم أو جلد الزاني، وقتل المرتد، وحرمة الربا، والحجاب، وإباحة الطلاق، وتعدد الزوجات ... الخ .

(رابعا) يحاربون المسلمين بشراسة ووحشية وينْزلون عليهم من العقوبات ما لا ينْزلون على المجرمين، حتى أصبحت الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة -والكفر بما يخالفها من المبادئ والنظريات والنظم- أخطر الجرائم التي تُرتكب في هذا العصر في اعتبارهم الجاهلي .

(خامساً) يؤمنون بالقوانين الوضعية العالمية، كميثاق هيئة الأمم المتّحدة وقوانين محكمة العدل الدولية. هذه القوانين التي تسوّي بين الكافر والمسلم والرجل والمرأة في الحقوق والواجبات. والتي تنكر الجهاد لإعلاء كلمة الدِّين وتصفه بالاعتداء على حقوق الآخرين .

(سادساً) يظهرون المودّة لأهل الكفر بتبادل الزيارات وإقامة الحفلات والتعاون في كثير من المجالات كالمجال الاقتصادي والعسكري والتعليمي والتعاون كذلك في إيقاف الزحف الإسلامي المتزايد. كما يقولون، كل هذه الأمور وغيرها تخرجهم من صف المنافقين وأحكامهم وتجعلهم في صف الكافرين المجرمين وأحكامهم. ولا فرق في هذا بين الحاكمين والمحكومين: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ**﴾ [النحل: ١٠٦] .

[د] ومنها:

أن الله تعالى وصف الشرك بالله بأنه ضلال بعيد كقوله: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾**﴾ [النساء: ١١٦] .

﴿**وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾**﴾ [النساء: ٦٠] .

﴿**يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾**﴾ [الحج: ١٢] .

وبيّن كذلك أن لا أضلّ ممن أعرض عن هدى الله واتّبع هوى نفسه.

فقال: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾**﴾ [القصص: ٥٠].

وهدى الله يشمل ما أنزل الله من العقائد والأحكام والأخلاق فمن رغب عن شيء مما بيّنه الله وظنّ أن الهدى أكمل في غيره مما وضعه الناس من الهوى، فقد دلّت الآية على وقوعه في الضلال البعيد الذي هو الشرك بالله وأنه مساوٍ للذي يدعوا من دون الله ما لا يضرّه ومالا ينفعه، إذ أن قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ**﴾ يُفيد أنه بلغ النِهاية في الضلال وأنه أصبح أبعد الضالّين ضلالاً.

وكذلك قد وصف الله الشرك بالله بأنه ظلم عظيم، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾**﴾ [لقمان: ١٣] .

ووصف المعرض عن الهدى بأنه بلغ النِهاية في الظلم وأنه لا أظلم منه.

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾**﴾ [ألم سجد: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].
فعُرف من ذلك أن اتّباع الهوى ومخالفة الهدى كفر أكبر مخرج عن ملّة الإسلام.

[هـ] ومنها:

إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ في شأن الاتّباع فقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [البقرة: ١٤٥].

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد: ٣٧].

وإذا كان النبي ﷺ وهو في أعلى الدرجات في مقام النبوة والوحي والقرب من الله قد خوطب بهذه الآيات التي تتضمن الوعيد والتهديد، وأخبر أنه سيكون من الظالمين أي الكافرين إن فعل ذلك فغيره أولى بأن يلحقه هذا الوعيد، وأن يوصف بالظلم والكفر إن اتّبع الهوى وترك العلم المنَزَّل من الله.

والنبي ﷺ كان معصوماً من الضلال والظلم فيكون الخطاب إذاً لأمته كي لا تتعرّض لغضب الله باتّباع الهوى وترك العلم.

ومن الناس من يتردّد أو يتوقّف في حكم الذي يدعى الإسلام ويشهد الشهادتين ويصلّي ويصوم ولكن لا يرى الحكم بين الناس بكتاب الله أو لا يرى بالتحاكم إلى غير شريعة الله بأساً .

لكن المؤمن إذا تدبّر هذه الآيات الثلاث عرف أن ليس هناك مجال للتردّد والتوقّف بعد بيان الله الصريح، ويعرف أن النبي ﷺ عند مخاطبة الله إياه بهذه الآيات كان أول من أسلم وشهد الشهادتين وصلّى وصام لله، ويعرف أن لو كانت كلمة الشهادة مع الصلاة والصيام شرطاً مانعاً من تكفير المستحلّ لاتّباع الهوى وترك العلم ما خوطب رسول الله ﷺ بِهذا الأسلوب المتضمّن للوعيد والتهديد.

[و] ومنها :

أن الله تعالى بيّن أن المسلم إذا أطاع الكفار في أمر من الأمور وترك طاعة الله ورسوله فإنه يصير بذلك كافراً مرتداً.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ [محمد: ٢٥-٢٦].

أولئك المرتدون المذكورون في الآيات قد ارتدّوا عن الإسلام لأنهم قالوا للكفار ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾.

فإذا كان ذلك كذلك فكيف بمن يطيع الكفار في كل شيء في جميع شئون الحياة .. في العقائد والشرائع والأخلاق. ويظنّ أنهم قد اهتدوا إلى أرقى الشرائع وأفضلها ويعتقد أن هذه الشرائع التي ابتكرها العقل البشري بغير مستند من شريعة الله من أهمّ العلوم التي تخدم الإنسانية وتضمن لها البقاء والإستقرار والأمن، أليس يكون هو أولى بالردّة عن الإسلام من هؤلاء المذكورين في الآية. إنّ بيان الله صريح في أنّ الهدى في اتّباع كتابه والضلال في الإعراض عنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [النحل: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

[ز] ومنها :

أن الله تعالى بيّن أن من كره شيئاً من تنْزيله لا يبقى له عند الله عمل صالح وأن الله سيحبط أعماله الصالحة كلها.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾﴾ [محمّد: ٩].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمّد: ٢٨].

فظاهر من الآيتين أن الإنسان إذا رضي بشريعة الله وعمل بِها ولكنّه كره أية واحدة وجاهر بِمخالفته لها فإنه يكون حينئذ كمن لم يعمل بشيء من الشريعة على الإطلاق، وذلك أن الله سيحبط أعماله الصالحة الموفقة للشريعة كلها، فلا يكون له عند الله مثقال ذرّة من خير، لأن كراهية الحقّ هي الكفر بالله والكفر محبط للأعمال الصالحة.

قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥].

فإذا كان ذلك كذلك فكيف بمن كره إتّباع الشريعة كلّها ورماها بالنقص وعدم القدرة على تلبية متطلبات الحياة العصرية، أليس يكون هو أولى بأن يحبط الله أعماله الصالحة كلها إذا كانت له أعمال صالحة من ذلك الذي كره آية واحدة من كتاب الله. ولو أنّ أولئك الحكام المنكرين لإتّباع الشريعة أظهروا التوبة من ذلك وحكموا بين الناس بما أنزل الله وأقاموا فيهم الصلاة وجمعوا الزكاة وقتلوا تارك الصلاة ومانع الزكاة وأقاموا الحدود الشرعية، وأمروا بجهاد الكفار، لو فعلوا كل ذلك ولكنهم استباحوا التعامل بالربا وحده من غير تأويل وردًّا النصوص الصحيحة من القرآن والسنة، وأعلنوا أنّهم لا يريدون أن ينقادوا لهذه النصوص في هذا الزمن المتطوّر لو فعلوا ذلك ما كان هناك مجال للتوقف أو التردّد في الحكم عليهم بالكفر البواح. فكيف إذاً وهم مجاهرون بمخالفة الكتاب كلّه منسلخون من الدِّين جملة وتفصيلاً.

وليس للمؤمن أن ينخدع بما يظهره بعض أولئك الحكام الطغاة من شعائر الإسلام، لأن كراهيتهم للشريعة أو لبعض جوانبِها أمرٌ مشهودٌ، وإحباط الله لأعمال الكارهين لتنْزيله خبرٌ ثابتٌ مقروءٌ. وكيف ينخدع بشعائر وأعمال قد بيّن الله أنه أحبطها وأنها لا تساوي عنده شيئاً.

إن كراهية أولئك الطغاة لما أنزل الله تتجلّى فيما يأتي :

(أولا): في تمسّكهم الشديد بالنظم الجاهلية الصادرة من الكفار أعداء الإسلام وتطبيقهم عملياً في كلّ شئون الحياة بفخر وإعتزاز.

(ثانيا): في تربيتهم للأجيال الناشئة تربية تضلّهم عن الإسلام عقيدة ونظاماً وخلقاً وسلوكاً وتزيّن لهم سبل الضلال وتظهر لهم الإسلام مجموعة من التقاليد البالية التي يجب أن يتحرّر منها الإنسان المعاصر.

(ثالثا): في حروبِهم الشرسة وسحقهم الوحشي لدعاة الإسلام الحنيف.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ [الحج: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢].

[د] ومنها :

أن الله تعالى بيّن في كتابه أن الأمة إذا اتّخذت قادة ومرشدين لنفسها ورضيت أوامرهم وأحكامهم المضادة لأحكام الله فإنّها تكون حينئذ أمة ضالة كافرة. وهذا الكفر والضلال يعمّ الحاكم والمحكومين الذين أظهروا الرضى والقبول وانقادوا لأحكام العبيد لأن الله تعالى لم يفرّق بينهم في ذلك، بل إنه وصف فرعون وجنوده بالخطيئة والإستكبار و لم يفرّق بينهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩].

وكذلك لم يفرّق بينهم في عذاب الدنيا.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ﴾ [القصص: ٤٠].

و لم يفرّق بينهم كذلك في عذاب الآخرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

وقد كان فرعون وملاؤه يعلمون أن الحقّ مع موسى عليه السلام ولكن منعهم الإستكبار وحبّ الرئاسة عن الإذعان للحقّ.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]

وهذا يدلّ على أنّ من علم الحقّ وأبى اتّباعه لا يعدّ من المؤمنين بالحقّ، لأن الإيمان ليس المعرفة القلبية وحدها، وليس هو القول مع المعرفة، وإنما هو قولٌ وعملٌ ونيةٌ.

فمن لم يتّبع الحقّ بعد علمه به لا يكون إلاّ مكذّباً وله عقوبة المكذِّبين في الدنيا والآخرة.

والمسلم قد يكون في دار غلبت عليها الجاهلية ولكن لا يجوز له أن يطيع الكفار في معصية الله إلا ما كان في حدود الإكراه، وإنما يجب عليه أن ينكر ذلك المنكر بقدر إستطاعته.

كما ورد في الحديث: «من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». [مسلم].

[ط] ومنها :

أن الله تعالى بيّن في كتابه مضمون دعوة الرسل عليهم السلام وأخبر أنّها كانت دعوة إلى عبادة الله وحده واجتناب الطاغوت.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد دخل في مسمّى الطاغوت الإنسان المتبوع المطاع في معصية الله.

قال الإمام ابن جرير الطبريّ: "والصواب من القول عندي في الطاغوت أنه كل ذي طغيان على الله فعُبد من دونه إما بقهرٍ منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له إنسانا كان ذلك المعبود أو شيطاناً أو وثناً أو صنماً أو كان ما كان من شيء" [جامع البيّان: م/ ص/٢٥].

ولذلك لا يصحّ أن يعدّ من المسلمين المستجيبين لدعوة الرسول ﷺ من يعرض عن كتاب الله المحكم ويصرّ على اتّباع الشرائع الصادرة من هوى البشر، ومن اعتبره مسلماً مع تلبّسه بذلك بسبب ما يدّعيه من الإسلام لله لزمه أن يعتبر عباد الأوثان والأصنام مسلمين إذا إدّعوا الإسلام وهم عاكفون على عبادة الأوثان والأصنام، لأن كليهما عابدٌ للطاغوت و لم يستجب لدعوة الرسول ﷺ فلا فرق بينهم في الحقيقة.

[ي] ومنها:

أن الله تعالى بيّن أنه يريد من الناس أن يتّخذوه ملكاً لهم ولا يسمّى ملكاً من لا يطاع أوامره ولا يجتنب نواهيه. وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه ملك الناس والملك الحقّ ومالك الملك.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس: ١-٢]

وقال تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: ١٨].

وبيّن أن الحكم والأمر له وحده، وأنه لا يحلّ لأحد أن يحكم ويأمر وينهى من تلقاء نفسه.

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وكذلك حرّم طاعة ملوك الأرض وجبابرتِها المسرفين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥١-١٥٢].

وقد جمع لمن عصاه وأطاع الملوك والجبابرة من دونه عقوبة الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۝٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٦-٩٧].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ [الزخرف: ٤٥-٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [هود: ٥٩-٦٠].

وخطورة الأمر ظاهرة من الآيات القرآنية، وقد تُرك للإنسان الخيار وله أن يسلك أيّ الطريقين شاء، إما أن يطيع الملك الحقّ ويتّبع ما شرعه جملة وتفصيلاً ويكفر بملوك الأرض وشرائعهم فهو حينئذ مؤمنٌ مسلمٌ حنيفٌ. وإما أن يطيع ملوك الأرض ويتّبع شرائعهم فهو حينئذ كافرٌ مشركٌ عدوٌّ لله مستحقّ لعذاب الله في الدنيا والآخرة.

[ك] ومنها :

أن الله تعالى أنزل كتابه على نبيه ﷺ وأمره أن يحكم به بين الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقد إمتثل النبي ﷺ بهذا الأمر وحكم بين الناس بالكتاب والحكمة مدى حياته واقتدى به خلفاؤه الراشدون ومن جاء بعدهم من الأمراء والحكام. والمسلمون كانو مجمعين على هذا الطريق في عصورهم كلها و لم يخرج عنه إلا من خرج عن الإسلام إلى الشرك والكفر بالله.

ومن خالف هذا الإجماع واختار حكم الجاهلية على حكم الله فهو مشاقّ للرسول ﷺ متّبع لغير سبيل المؤمنين ومصيره معروف.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

[ل] ومنها

أنه ثبت عن النبي ﷺ من طرق كثيرة صحيحة أنه أمر بقتل الخوارج وحرّض على ذلك وبيّن ما في ذلك القتل من أجر عظيم عند الله، وثبت كذلك عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم أجمعوا على قتالهم و لم يختلفوا فيه لما ظهرو في عهد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ، وثابت كذلك أن الفقهاء قد اختلفوا في حكمهم، فمنهم من رأى تكفيرهم مستدلاً ببعض الألفاظ الواردة في الأحاديث:

قال ﷺ: "شرّ القتلى تحت أديم السماء" [الترمذي وأحمد وابن ماجه].

وقال ﷺ: "يمرقون من الدِّين مروق السهم من الرمية" [متفق عليه].

وقال ﷺ: "يمرقون من الإسلام" [متفق عليه].

وقال ﷺ: "لئن أدركتهم لأقتلنّهم قتل عاد" [متفق عليه].

ومنهم من لا يرى تكفيرهم ويقول إنّهم كانوا متأولين، ومنهم من يرى التوقّف وعدم الإطلاق عليهم بكفر ولا إسلام، ومع هذا فالجميع متّفقون على قتالهم إذا خرجوا واجتمعوا عملاً بالأحاديث الصحيحة وإقتداءً بالصحابة.

والسؤال هو ما هي حقيقة أولئك الخوارج الذين وقع الإجماع على قتالهم وقتلهم؟

إذا بحثنا عن حقيقتهم فإننا نجد أنّهم قبل ضلالهم:

(**أولا**) كانو مسلمين ومن قرّاء المسلمين الذين تعلّموا القرآن من الصحابة الذين كانو بالعراق، كعبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعريّ وغيرهم.

(**ثانياً**) لم يطعن أحد في إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، و لم يكونوا مشركين في الإعتقاد والعبادة ولا في الإتّباع والتشريع.

(**ثالثاً**) إنّهم ظنّوا أن مرتكب الكبيرة خارج عن الإسلام والإيمان بمجرّد وقوعه فيها، ثم أصبح ذلك عقيدة لهم يطبقونها على المسلمين، فاستحلّوا دماء المسلمين وأموالهم، وأصبحوا من مصادر الخطر الذي يهدّد أمن المجتمع واستقراره. وهذا هو أصل ضلالهم.

(**رابعاً**) وكانوا مع إفسادهم الكبير في الأرض مشهورين بالشجاعة والفروسية والصدق والإستماتة في سبيل المبدأ، واشتهروا كذلك بكثرة العبادات.

فإذا عرفنا حقيقة القوم وعرفنا كذلك ما قاله ﷺ في حقّهم وما أجمع عليه المسلمون من قتلهم فإنّنا نستنتج من ذلك.

(**أولا**) أن المسلمين الموحّدين الذين لا يشركون بالله شيئاً وشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله ﷺ إذا إجتمعوا واتّفقوا على أمر مخالف لكتاب الله كترك واجب أو إستباحة محرّم فإنّهم يقاتَلون ويُقتلون.

كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فأولئك الخوارج إستحلّوا أعراض المسلمين واستحلّوا كذلك دماءهم وأموالهم، فأحلّت هذه المخالفات الشرعية دماءهم وأصبحوا شرّ القتلى تحت أديم السماء مع ما إشتهروا به من التمسّك لأصل الإسلام والعبادة الكثيرة.

(**ثانياً**) إن المخالف للحقّ إذا ظنّ واعتقد أنه على الحقّ وغيره على الباطل لا يكون معذوراً بالجهل ولا ترفع عنه عقوبة المخالفة، لأن الخوارج أنكروا الحقّ وظنّوه باطلاً، واعتقدوا الباطل وظنّوه حقّاً، فلم يعذرهم الشرع بالجهل وإنما أباح قتلهم.

(**ثالثاً**) إن الطواغيت المعاصرين وأتباعهم، الذين نبذوا كتاب الله كله واستحلّوا قيادة الأمم بشرائع لم يأذن بِها الله جاءتْهم من الغربيين الكفّار. إن أولئك الطواغيت والراضين عنهم أشدّ كفراً وضلالاً من الخوارج الذين أباح رسول الله ﷺ دماءهم، لأن الأولين خالفوا جزءً من

الشريعة واستمسكوا ببقية الشريعة بشدّة وقوّة. أما المعاصرون فقد خرجوا عن الشريعة كلّها وعدّوها من مخلّفات القرون الماضية. وظنّوا أن الكفّار أهدى سبيلاً وأعدل شريعة، فاتّبعوا سبيلهم واتّخذوا كتاب الله مهجوراً.

ولقد كان الخوارج مع اختلافهم الجزئي يظنّون أنهم متبعون للشريعة وكانوا يرجون رضى الله والجنة بأعمالهم المخالفة للشريعة وكانوا يسمّون أنفسهم بـــ"الشراة" .. أي الذين شروا أنفسهم بالجنة ... أما المعاصرون فهم أفسد قلوباً من الخوارج فلا يطلبون رضى الله والجنة بما فعلوه من الكفر، بل إنّهم لا يرون رضى الله والجنّة غاية تستحقّ الاهتمام والطلب وهم كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

وقصة الخوارج وما صحّ عن النبي ﷺ في شأنهم أصل عظيم يبيّن وجوب التبرّؤ والقتال لمن خرج عن الشريعة واتّخذ خلافها طريقاً يستحسنه، ولو كان ذلك الخارج ينتسب إلى الإسلام ويشهد الشهادتين، ويقوم الليل ويصوم النهار ولو كان كذلك جاهلاً يتأول ويظنّ أنه على الحقّ المبين.

والقصة كذلك حجة على الذين يجادلون عن الخارجين عن الشريعة من المنتسبين إلى الإسلام، هذا الجدال الذي لا يقوم على أصلٍ صحيحٍ من الكتاب والسنة، ولا يبعثه إلا الهوى ورعاية المصالح الدنيوية، أو الجهل وعدم إدراك حقيقة الدّين إدراكاً صحيحاً وعدم معرفة أن الإنسان قد يكفر ويرتدّ وهو ينتسب إلى الإسلام ويشهد الشهادتين.

وقد استدلّ الإمام ابن تيمية رحمه الله بهذه القصة لما بيّن كفر المستغيثين بغير الله من المنتسبين إلى الإسلام فقال في الرسالة السنية: "فإذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب منها الغلوّ في بعض المشايخ، بل الغلوّ في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بل الغلوّ في المسيح، فكل من غلا في نبيّ أو رجلٍ صالح وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان أنصرني أو أغثني أو أرزقني أو أنا في حسبك ونحو هذه الأقوال. فكل هذا شركٌ وضلالٌ يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل. ولما سُئِل عن قتال الروافض استدلّ بقصة الخوارج وبيّن أنّهم شرّ من الخوارج الذين أمر بقتالهم". [الفتاوى: م:٢٨].

وكذلك لما سئل عن قتال التتار المنتسبين إلى الإسلام استدلّ بقصة الخوارج وبيّن أنّهم شرّ من الخوارج وأنهم إستباحوا دماء المسلمين بغير تأويل وأنّهم أولى بالقتل والقتال منهم. ولو أنه كان حيّاً ورأى ما عليه كثير من المنتسبين إلى الإسلام كالعلمانيين والديمقراطية والإشتراكيين ودعاة التجديد والتقليد للغربيين لقال قولاً يشبه أقواله في المتقدمين أو أشدّ منه لأنّ شريعة الله لا تتغيّر وحكمها ثابت إلى يوم القيامة.

إن قتال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ومعه الصحابة للخوارج المارقين وقبله قتال الصديق ﷺ ومعه الصحابة لما نعى الزكاة. وإجماع العلماء والفقهاء بعدهم على تصويب أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب في قتالهم للخارجين عن الشريعة. إن ذلك القتال وذلك الإجماع يكفي لمعرفة مذهب السلف الصالح في مسألة المنتسبين إلى الإسلام إذا خرجوا عن الشريعة بتأويل أو بغير تأويل. ويكفي كذلك لمعرفة بطلان فكرة المرجئة القائلة بأن من قال لا إله إلا الله حرُم دمه وماله ودخل الجنة، من غير إستثناء ومن غير إشتراط لشرط من الشروط. والنصوص الدالة على كفر وضلال متّبع الهوى أكثر من ذلك. ونكتفي بِهذا القدر الذي فيه الكفاية لمن كان قصده إتّباع الحقّ.

ومن الأمو الضرورية شرعاً أن يعرف المسلم حكم البيئة التي يعيش فيها، أهي بيئة إسلامية أم هي بيئة جاهلية، لأن إتّباعه لمنهج الله في الحياة يتعلّق بِهذه المعرفة، ولا يستقيم بدونِها. فالبيئة إذا كانت في ميزان الله بيئة إسلامية منقادة لأوامر الله وأحكامه فهناك طريق يأمر الله بسلوكه وحقوق يوجبها على المسلم لبيئته المسلمة، وأحكام يتعامل على أساسها مع الأفراد والجماعات التي تتألف منها هذه البيئة، فمثلاً يكون واجباً عليه أن يطيع قيادتَها في المعروف وأن يصلّي خلفها ويعطيها زكاة ماله ويقاتل تحت رايتها وينصح لها وينصرها ويواليها، وأن يؤدي جميع الحقوق التي جعلها الله ورسوله للمسلمين على المسلمين كما هي في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

أما إذا كانت البيئة في ميزان الله بيئة جاهلية فاسقة عن أوامر الله وأحكامه فهناك طريق آخر يختلف عن الأول كل الاختلاف يأمر الله بإتّباعه، هناك البراءة منهم ومفاصلتهم على العقيدة والكفر بقيادتِهم الجاهلية وطاغوتِهم المطاع، هناك دعوتهم إلى الله بالطريقة المبيّنة في كتاب الله التي سلكتها رسل الله على توالي الأزمان، والتآسي بأولئك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم الذي صبروا على التكذيب والإعراض، وعلى المتاعب الكثيرة التي لحقتهم من جرّاء الدعوة التي قاموا بِها والتي كانت مفروضة عليهم فرضاً.

ومن جهل حكم البيئة و لم يهتمّ بمعرفتها فقد جهل الطريق الواجب عليه سلوكه. وجهل كذلك كيفية العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وجهل الحقوق التي له والتي عليه. وذلك أن الله تعالى قد قسم القيادات التي تحكم المجتمعات البشرية إلى قيادة ضالة كافرة، وقيادة مهتدية إسلامية. وجعل للقيادة الإسلامية حقوقاً على المسلم لم يجعل مثلها للقيادة الضالة الكافرة.

كما أنه أنزل طريقة يتعامل المسلم على أساسها مع أخيه المسلم وأخرى يتعامل على أساسها مع أهل الشرك وأتباع الطواغيت، فإذا كان الإنسان لا يدري حكم البيئة أو أخطأ في حكمها فلا بدّ تبعاً لذلك من أن يُخطئ في العمل بالكتاب والسنة وأن يضع النصوص في غير موضعها الصحيحة إذا كان جاداً في إتّباع الكتاب والسنة.

وأقرب مثال لذلك هو أولئك الذين يدعون الناس إلى الجهاد ضدّ النصارى، وهم في ظلّ حكومة جاهلية علمانية تعادي الإسلام وتحارب أهله، فينطلقون من قاعدة كافرة تُعتبر دار حرب في ميزان الإسلام لملاقات أمثالهم من الكفار، وذلك أنّهم قد فهموا من كتاب الله أنه يأمرهم بالجهاد، وفهموا أن النصارى كفار، لكنهم جهلوا أحكام العلمانيين والديمقراطيين الجاهلين الذين ينتسبون إلى الإسلام وهم خارجون منه خروجاً كاملاً، فأوردهم هذا الجهل ذلك التصرف الغريب الذي هو تركهم لقتال الكفار الذين يلونَهم إلى الذين لا يلونَهم فوق أنّهم لم يبلغوا درجة من القوّة يستطيعون بِها الصمود في وجه إحدى القوّتين. ولا بدّ للجهاد من قاعدة حرّة مستقلّة، ولا بدّ له من إعداد القوّة المادية والمعنوية، كما يؤخذ ذلك من التوجيهات المباشرة للقرآن الكريم.

وهذا مثال واحد من أمثلة كثيرة متكرّرة للتصرفات الصبيانية الناشئة عن الجهل بالواقع أو الجهل بالتوحيد ولوازمه. ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] .



(٢) البراءة والمفاصلة

أول ما يجب على المسلم الّذي عرف أصل دينه معرفة تامة وعرف حق الله الّذي عليه وعرف الفرق الّذي بين أهل الإسلام وأهل الجاهلية هو أن يكون بريئاً من أهل الشرك كبراءته من الشرك. والبراءة المطلوبة هي:

(١)بغضهم في الله (٢) عدم موافقتهم في منكراتهم (٣) قطع موالاتهم

(أولاً) بغضهم في الله :

المشركون لم يستجيبوا لرّبهم الّذي يدعوهم إلى صراطه المستقيم صراط التوحيد والإسلام واستجابوا لنداء الشيطان الّذي يدعوهم إلى صراط الجحيم صراط الشرك والجاهلية، ولذلك فهم أولياء الشيطان عدو الله الكافر، ومن وَالَى عدوَ الله فقد جاهر بمعاداةِ الله وخروجه عن حزبه المفلح. فهُما حزبان متعاديان متضادّان ولكل منهما آمرٌ متبوع، والآمران لا يتفقان ولا يصطلحان. ومن ثم وجب على المؤمِن أن يبغض المشركين في الله، بل إنّه لا يكون مُؤمناً حتى يُبغضَهم وتزول مودّتهم من قلبه.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

والله سبحانه قد لعن في كتابه الشيطان فقال: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١١٧].

ولعن كذلك أولياءهُ الكفار فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤].

وقَالَ: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف :١٨].

والمرءُ مع من أحب، كما في الحديث الصحيح المتواتر. فمن أحبَّ الملعونين كان ملعوناً مثلهم.

والمشركون أيضاً ظالمون، لأنهم صرفوا حقّ الله الّذي عليهم إلى غيره من العبيد. فمن أحبّ الظالمين فقد أحبّ الظلمَ ورضى عنه فصار من أهله.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣]

وفي الحديث: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله)» [الطبراني].

وفي الحديث الأخر: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد إستكمل الإيمان» [أبو داود].

أما محبة الإيمان والإسلام لهم والحرص على إنقاذهم من شقوة الكُفر والجاهلية فهذا حسن مأمورٌ به، وليس هو من المودّة المحرّمة التي لا تُوجد في قلوب المؤمنين. وقد كان كلّ رسولٍ من رّسل الله حريصاً على هداية قومه وإنقاذهم من الضلال والخسران قائلاًلهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعْراف: ٥٩].

وكانوا مع ذلك يبغضون المشركين ويعلنون لهم أن العداوة والبغضاء ستستمرُّ بينهم ولاتزول أبداًحتى يؤمنوا بالله وحده.

قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

والشرك بالله ليس نظرية مجرّدة مستقلّة عن النّاس، وإنّما هو عقيدة مكنونة في قلوب بعضهم وتظهر للواقع في صورة حركات وأفعال. فمن كان صادقاً في بغضه للشرك بالله لابد له من أن يبغض المشركين وإلا كان كاذباً في دعواه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ .. وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١].

وقد شرع الله للمسلمين أن يخالفوا المشركين في الهدي الظاهر لأنّ التشابه فيه يورث المودة القلبية. فشرعت المخالفة لإبعادهم عن مودتهم والركون اليهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الانعام:١٥٩].

قال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد:١٦].

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من تشبه بقومٍ فهو منهم» [أبو داود].

وعنه أيضاً: أنّ رسول الله ﷺ قال: «خالفوا المشركين: أحفوا الشوارب واعفوا اللّحي» [متفق عليه].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ :«إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم»[متفق عليه]

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «لا يزال الدِّين ظاهراً ما عجل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون» [أبوداود].

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر» [مسلم].

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «خالفوا اليهود فإنهم لا يصلون في نعالهم ولاخفافهم» [أبو داود].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا اتّبع جنازةً لم يقعد حتى توضع في اللحد. فتعرض له حبرٌ فقال: هكذا نصنع يا محمد، قال فجلس رسول الله ﷺ وقال: خالفوهم» [أبوداود].

وعن ابن عباس مرفوعاً: «اللّحد لَنَاْ والشقُ لِغيرنَاْ» [أهل السنن].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً: «ليس منَّاْ من تشبَّه بغيرنا لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى، فإنّ تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالأكف» [الترمذي].

وعن ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعاً: «صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود وصوموا يوماً قبله ويوماً بعده» [أحـــمد].

قال المروزي: سألتُ أبا عبد الله -أحمد بن حنبل- عن حلق القفاْ فقال: "هو من فِعْل المجوس، ومن تشبّه بقومٍ فهو منهم".

(ثانياً) عدم موافقتهم في منكراتهم :

يجب على المسلم أن لا يوافق المشركين في منكراتِهم من الشرك بالله والفسوق عن أمرِ الله، وأن يكون بريئاًمنهم إعتقاداً وسلوكاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١-٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام :١٩].

وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى :١٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الأسراء:٨٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

وهذه البراءة ليست قولية فحسب، وإنما هي عملية، وتؤثر في حياة المسلم وتجرُّ له المتاعب والشدائد، يتنكر له الأقرباء وينقلب الأصدقاء إلى أعداء لايرقبون فيه إلاً ولا ذّمة كما قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبه: ١٠].

فتخرج حياته حينئذ عن مسارها المعتاد، ويكون كالمنبوذ المطرود في بيئته، متعرّضاً للأخطار في كلّ حين، فيقع الإبتلاء الموعود فيصبر المؤمنون ويرتدّ المنافقون. ومن طبيعة البشر أن لا يصبروا على الإنتقاد والطعن في عقيدتِهم وسلوكهم، ولوكانت هذه العقيدة شركاً محضاً والسلوك فسقاً وفجوراً، لأنّهم يرون ذلك تسفيهاً لأحلامهم وتنقصاً لأبائهم وأجدادهم، فكانت مقاومتهم للحق الّذي جاءت به الرسل عليهم السلام دائماً شديدةً وعنيدةً.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ﴾ [التوبه:٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [فاطر:٨].

وكان المشركون يتهمون النبي ﷺ بأنه شتم آلهتهم وكفر أباءهم وسفّه أحلامهم، ويقولون إذا رأوه استهزاء ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان:٤١]. ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٣٦].

وكان الله تعالى يأمر نبيه أن يكون ثابتاً على الحق لا يتزحزح ولا يستجيب لإقتراحاتِهم وإغراءاتِهم، وأن يقول الحقّ ولو كرهوه.

قال تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾ [غافر: ١٤].

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر:٩٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ [القلم :٨-٩].

لأن الثبات والإصرار على الحق إذا تمّ على الوجه الصحيح سيكون صفحةً مقابلة للشرك، وطريقاً معارضاً له، فيبعث ذلك الناس على النظر والبحث والمقارنة بينهما، وترجيح أحدهما على الآخر، فيظهر للعقلاء حينئذ قبح الشرك وعيوبه وحسن التوحيد ونزاهته، فيكون ذلك سبباً لقبولهم دين الله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩].

ومن أخطر الأمور أن يشّك المسلم في حقيقة الجاهلية، وأن يظن بِها خيراً وإسلاماً وهم لايزالون في جاهليتهم، يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، لأنه ينتج من هذا الشك أن يشك في طريقه،وأن يضعف عن البراءة والمفاصلة، وأن يوافقهم ويصطلح معهم ويكون منهم. وهذا هو الكفر والضلال والخذلان. وقد نَهي الله نبيه ﷺ عن أن يدخل هذا الشك الّذي هو أولى الخطوات إلى طريق الكفر وموافقة الجاهلية في قلبه، فقال له: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾ [هود:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٧﴾ [هود:١٧].

وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٥﴾ [يونس:٩٤-٩٥].

وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ٧٩ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النمل: ٧٩-٨١].

قال سيد قطب رحمه الله: "كذلك لاينبغى أن تقوم في نفوس أصحاب الدعوة إلى الله تلك الشكوك الّسطحية في حقيقة الجاهلية وحقيقة الإسلام وفي صفة دار الحرب ودار الإسلام. فمن هنا يؤتى الكثير منهم في تصوراته ويقينه، إنه لا إسلام في أرض لايحكمها الإسلام ولاتقوم فيها شريعته، ولا دار إسلام إلاّ التي يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونة. وليس وراء الايمان الاّ الكفر، وليس دون الإسلام الاّ الجاهلية، وليس بعد الحق إلا الضلال". [معالم في الطريق].

(ثالثا) قطع موالاتهم:

لا يحلّ للمسلم أن يوالي أهل الجاهلية المشركين، وأن يتّخذ منهم أولياء. وكلمة (وليّ) تحمل معاني القرب والحبّ والنصرة والطاعة. والمرء قبل إسلامه كانت عشيرته أوقبيلته أومجتمعه أقرب النّاس إلى قلبه، وكان يحبُّهم ويطيعهم وينصرهم ويرجوا منهم النصرة، وكان يغضب لهم ويكره مساء تَهم. وهذا هو (الولاء) فإذا أسلم المرء وبقيت العشيرة أو القبيلة أو المجتمع في الشرك لا يحلُّ أن يستمرّ ولاؤه لهم،وأن يكون كما كان قبل إسلامه، بل عليه قطع موالاتِهم، واتّخاذ المؤمنين أولياء له من دونِهم. فمن أعلن موالاته لأهل الشرك وبراءته من أهل التوحيد كان كافرا مشركا مثلهم. ومن أعلن موالاته لأهل التوحيد وبراءته من أهل الشرك، ولكنه أضمر خلاف ذلك ووالى المشركين في السرّ كان منافقاً له ما للمنافقين في الدنيا والاخرة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة:٢٣].

وقال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة:٥١].

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾ [آل عمران:٢٨].

قال الإمام إبن كثير في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةً﴾ أي من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرّهم فله أن يتقيهم بظاهره لاباطنه ونيته، كما قال البخارى عن أبي الدرداء أنه قال "إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم".

وقال الثوريّ: قال ابن عباس: "ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان".

و لم ينه الله المسلمين عن صلة أرحام المشركين الذين لا يقاتلونَهم في الدِّين، ولا يجهرون بطعن الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٨-٩]

قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان:١٥].

قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ [التوبة: ١٢].

ومن العلاقات التي لا تنقطع بين أهل الإسلام وأهل الجاهلية التي لا تعد من الموالاة

- صلة الأرحام، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين.
- دعوتُهم إلى الله، وتعليمهم دين الإسلام.
- الأخذ والعطاء في أمور التجارة والتعامل اليومي.

أما الإجتماع معهم في المعابد والمساجد وهم لا يزالون مصرين على شركهم وكفرهم للوقوف بين يدى الله صفا واحداً، والإقتداء بِهم في صلاتِهم، فهذا لا يجوز، ويدلُّ عليه ما يأتي:

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [التوبة :١٧].

مع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ [التوبة : ٢٨].

قال تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ [الكافرون:٦].

فدلت الآية على أن أهل الإسلام وأهل الشرك لا يلتقيان في أمر من الأمور الدينية قبل توبة أهل الشرك من الشرك. والصلاة من أهم أمور الدِّين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥]. فسمَّى الصّلاة ديناً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء: ١٠٣].

يدلُّ على أنّ المشركين ليسوا من أهل الصّلاة.فمن صلّى منهم فهو كمن لم يصل. فكيف تصحّ الصّلاة خلفهم. وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٧﴾ [يونس:٨٧].

قال المفسرون: (قبلة) أي مساجد.

وقال سيد قطب في "ظلال القرآن" عند هذه الآية: "وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ليست خاصة ببني إسرائيل، وإنّما هي تجربة إيمانية خالصة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة وتجبر الطاغوت وفسد الناس وانتنت البيئة، وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة.وهنا يرشدهم الله إلى أمور:

(١) إعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها ما أمكن في ذلك، وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها لتطهرها وتزكيها وتدربها وتنظمها حتى يأتي وعد الله لها.

(٢) إعتزال معابد الجاهلية وإتخاذ بيوت العصبة المؤمنة مساجد تحسّ فيها بالإنعزال عن المجتمع الجاهليّ، وتزاول فيها عبادتَها لربِّها على نَهجٍ صحيح، وتزاول بالعبادة ذاتِها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور". [في ظلال القرآن].

وقد أُمر النبي ﷺ في القرآن أن يكون من المؤمنين، وأن لا يكون من المشركين. كقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾ [الأنعام:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١﴾ [النمل:٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس:١٠٤].

وقد أُمر ﷺ في هذه الآيات وأشباهها في القرآن أن يكون من المؤمنين في "العقيدة" وفي "الولاء"، ونَهي ﷺ عن أن يكون من المشركين في "العقيدة وفي "الولاء". والنبي ﷺ كان معصوما من ذلك، ولكن الخطاب للأمة، كي يعلموا أنّ من وافق المشركين في عقائدهم وأعمالهم التي قد صاروا بِها مشركين يكن مثلهم مشركا مخالفا للحق الّذي جاء به محمد ﷺ ، وليعلموا كذلك أنّ من لم يوافق المشركين في ذلك ولكنه والاهم ووادّهم من دون المؤمنين يكن أيضا كافراً مثلهم كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

فقد خوطب الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الآية بعد الهجرة إلى المدينة بزمن وكانوا مسلمين يشهدون الشهادتين ويؤدون الفرائض ويجاهدون الكفار ويطلبون الشهادة. فدلّ ذلك على أن من والى المشركين موالاة ظاهرة لا ينفعه تكلّمة بالإسلام وأداؤه لبعض فرائضه لكفره الظاهر بالله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة : ٥١].



(٣) الدعوة إلى الله

الدعوة إلى الله فريضة فرضها الله على المرسلين والمؤمنين

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن:٢٢-٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤-٢١٦].

وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْۗ﴾ [المائدة:٦٧-٦٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف:١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال ياقوم إنى رأيت الجيش بعينى، وإنِّي أنا النذير العريان فالنجاء، فأطاعته طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم. وكذَّبتْ طائفة منهم فأصبحوا مكانَهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مثل من أطاعني واتّبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق». [مسلم].

وقال رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه يوم خيبر: «أنفذ على رسلك حتى تنْزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه. فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير من أن يكون لك حُمر النعم». [متفق عليه].

ويجب أن تكون الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة: والحكمة هي إصابة الحقّ. والقرآنُ حكمةٌ أنزلها الله للبشر،من تَمسَّك به لا يضلُّ ولا يشقى. فيجبُ أن يعتمد عليه الداعية في أداء وظيفة الدعوة.

قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق : ٤٥].

ويجب أن تكون الدعوة بالموعظة الحسنة. أي بالكلام البليغ المؤثر الواصل إلى قلب المستمع، وأن يكون الإظهار للحق بالرفق والقول الليِّن، والإ بتعاد عما يثير الغضب والنفور والإنتصار للنّفس.وليس من الحكمة والموعظة الحسنة إخفاء حقيقة الإسلام لخشية معارضة الناس ونفورهم.

قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٣-٤٤].

ومن الحكمة عدم عرض التفاصيل والأحكام الفرعية قبل قبول الناس للعقيدة والتوحيد، لأنّ الله تعالى لم ينْزل الأحكام والحدود إلا بعد أن إستوفت العقيدة حقها من البيان، ورسخت في نفوس المؤمنين رسوخا كاملاً.

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال له: «إنك تأتى قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله إفترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أنّ الله إفترض عليهم صدقة تُؤخذ من أغنيائهم فتُردّ إلى فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتّق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». [متفق عليه].

قالت عائشة رضي الله عنها عن القرآن: "أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا:لا ندع الخمر أبدا. ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً". [رواه البخاري].

والدعاة إلى الله في أوساط الجاهلية أمامهم مجالان للعمل:

(الأول) **المجال الخارجي**: وهو دعوة أهل الجاهلية إلى الإسلام الحنيف الّذي هو الإقبال على الله والميل إلى عبادته وحده،والإعراض عما سواه من المعبودات البشرية وغير البشرية، وإنذارهم عواقب الكفر والعصيان.

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾ [إبراهيم:١-٣].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت:٦-٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد: ٧].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٦٥﴾ [ص: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝٥١﴾ [الانعام:٥١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ۝١٨﴾ [غافر: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٩﴾ [مريم:٣٩].

(الثاني) **المجال الداخلي**: وهو الإهتمام بتربية وتعليم المسلمين حتى تصحّ أفكارهم ومشاعرهم وأعمالهم، وتكون موافقة للقرآن ولطريق السلف، الذين ربّاهم القرآن، وبذل الجهد حتى يتحرّر كلّ فردٍ منهم من الأفكار والمشاعر والأعمال الجاهلية التي إعتادها في حياته قبل الإسلام، والتي قد يكون بعض رواسبها متبقيا في نفسه.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة:١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقد كان رسو ل الله ﷺ يُعلِّمُ المسلمين ما جهلوه من أمور دينهم وكان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويصحّح لهم أخطاءهم في الفكر والشعور والعمل، وكان يعظهم وينصحهم أفراداً وجماعات، ويهديهم إلى أرشد أمورهم وما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وقد وصفه الله بذلك في كتبه قبل بعثته.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف:١٥٧].

والإقتداء بالرسول ﷺ يقتضي أن يكون المسلم الداعية إلى الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ناصحا للمسلمين يعظ الغافل ويعلم الجاهل.

وتربية الأفراد تربيةً إسلامية لا تنجح ولا تؤتي ثمارها إلاّ بتوافر الشروط الآتية:

(الأول) المنهج الصحيح:

وهو إتّخاذ القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ وسيرته المرجع الأول والمصدر الوحيد الّذي يستمدُّ منه المسلم معرفته لحقائق العقيدة ومنهج الحياة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الجاثية:٦].

وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾ [المرسلات :٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البقرة:١٢٠].

عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنّهم لن يهدوكم وقد ضلّوا،وإنكم إما أن تصدِّقوا بباطلٍ وإما أن تكذِّبوا بحقٍّ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلاّ أن يتّبعنِي». [الحافظ أبو يعلي].

والمعرفة للكتاب والسنة وحدها لا تنفع شيأً ما لم يصاحِبها عمل وتطبيق. فإن الله لم ينْزل العلم إلاّ للعمل به. فمن علِم و لم يعملْ بعلمه صار من أجهل الجاهلين وأشدّهم إثماً. وقد كان ﷺ يقول في دعائه «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لايخشع، ونفس لاتشبع، ودعوةٍ لا يُستجاب لها». [مسلم].

(الثانى) القدوة الصالحة:

وهو كون المربي قدوة صالحة، ومثالاً حياً وترجمة حقيقية لما يدعوا إليه ويقول، فإن لم يكن كذلك وعجز هو عن التطبيق والعمل بما علمه فلأن يعجز المتعلِّم ويعرض عن التطبيق أولى. بل إنّ المتعلِّم في الغالب يتّخذ من فِعل مربِّيه حجةً بجواز التساهل في الأمر أو صعوبة التطبيق على الوجه الأكمل، أو إستحالة ذلك. وإذاً فإن صلاح المربِّي وإستقامته ضرورية لنجاح التربية الإسلامية. وأهمّ الصفات ألتي يجب أن يتّصف بِها المسلمُ الداعية إلى الله هي:

(١) العِلم: يجب أن يكون عالما بما يدعوا إليه، فإن علم التوحيد ولوازمه وما يضاده من الشرك. يجب عليه أن يدعوَ المشركين إلى التوحيد ولو كان لا يعلم كثيراً من الاحكام الفرعية، وكذلك إذا علم الصلاة وأحكامها ونواقضها يجب عليه أن يُعَلِّمَ من لا يعرف ذلك من المسلمين ولو كان لا يعرف أحكام الزكاة أو الصيام، وعليه أن يسعى دائماً إلى رفع مستواه العلمى.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة:١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر :٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزمر:٩].

(٢) التقوى: يجب أن يكون مخلصاً لله بعمله، متورعاً عن الشبهات، زاهداً عن الدنيا، لا تستهويه زخارفها، ولا تميل به عن الإستقامة على الطريق.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التو بة :١٢٣].

(٣) الرحمة: يجب أن يكون رحيماً بمن معه من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر:٨٨].

وقال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال سيد قطب رحمه الله: "يجب على الداعية أن تتوفر فيه الطبيعة الخيرة الرحيمة الهينة اللينة المعدّة لأن تتجمع عليها القلوب، وتتألف حولها النفوس. فيجب أن يكون رحيما بمن معه، ليِّناً معهم. ولو كان فظا غليظ القلب ما تتألف حوله القلوب، ولا تتجمع حوله المشاعر. فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ودّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل هُمومهم، ولا يعنيهم بِهمه، ويجدون عنده دائما الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء. وهكذا كان قلب الداعية العظيم محمد ﷺ.

هكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشريّ، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الدنيا، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبرّه وعطفه وودّه الكريم".

(٤) الحلم والصبر: "يجب عليه أن يكون حليما صبوراً لا يجزى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر.

قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الاعراف١٩٩-٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت ٣٤ -٣٥].

وقال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾ [المؤمنون:٩٦].

قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠].

(الثالث) البعد عن المؤثرات الخارجية:

أي أن لا يسمح للمتعلِّمين قراءة ودراسة العقائد والأفكار والمناهج المخالفة لما جاء به الإسلام، قبل إكتمال ونضوج العقيدة الإسلامية في نفوسهم. لأنّ هذه العقائد والأفكار الجاهلية معادية للإسلام وتتعمّد التشكيك في الاصول الإيمانية التي يقررها. وإذا كان الله تعالى لا يرضى للمسلم أن يتلقَّى حقائق العقيدة من الكتب السماوية المحرفة، فمن الجهل الظنّ بأنّه يرضى للمسلم أن يتلقَّى ذلك من الكتب البشرية الأرضية التي تحتوي من الكفر و النفاق ما لا يعلمه إلاّ الله. مع أنّ الجلوس في المجالس التي يكفر فيها بالله لا يجوز للمسلم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الانعام ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠].



(٤) ضرورة ميلاد الجماعة

إن جمع المسلمين وتوحيدهم كي يكوّنوا جماعةً متعاونة تسعى لتحقيق ألوهية الله في الأرض وإزالة الأنظمة البشرية، والطواغيت المطاعة الحاكمة بغير ما أنزل الله ليس نافلة من النوافل التي للإنسان فيها الخيار، وإنما هي فريضة دينية لها أهمية عظيمة في نظر الإسلام. وأهْميتها تظهر لك من وجوه كثيرة :

(الأول) إن الغاية التي لأجلها يسعى المسلم هي بلوغ رضى الله ودخول جنّته، وقد أنزل الله في كتابه صفات أهل الجنّة في الدنيا فقال: ﴿**فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩**﴾ [الشورى:٣٦-٣٩].

فذكرت الآيات صفات المؤمنين الذين سيدخلون الجنّة، ومن هذه الصفات:

(١) أن أمرهم شورى بينهم، فهم جماعة واحدة، لها أهداف ومصالح مشتركة فهي تصدر قراراتِها بعد الشورى وتبادل الآراء.

(٢) إنّهم إذا اصابَهم البغي ينتصرون. فهم وحدةٌ واحدةٌ، قادرةٌ على الحركة لردّ الإعتداء في كل حين، لا يختلفون ولا يتفرّقون، لأنّ لها من يوجّهها ويأمرها فيُسمع ويطاع. فعلى المؤمن الحريص على دخول الجنّة والنجاة من النّار أن يكون عضواً في جماعةٍ لها تلك الصفات.

وقد جاء في الحديث: «يد الله مع الجماعة ومن شَذَّ شُذَّ في النّار» [الترمذي].

وقال ﷺ : «وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملّة -يعني الأهواء- كلّها في النار إلاّ واحدة وهي الجماعة» [أحـــمد وابن ماجه].

وقال ﷺ: «والجماعة رحمة والفرقة عذابٌ» [أحـــمد].

وقال ﷺ: «فمن أراد منكم بحبحة الجنّة فليلزم الجماعة» [أحمد].

(الثانى) إن المسلم مأمورٌ بإقتفاء آثار رسل الله عليهم الصلاة والسلام في كل أمرٍ من أمور الحياة، لأنّهم كانوا على الصراط المستقيم. وقد كان من هديهم إتّخاذ الأنصار والأعوان من المؤمنين المستجيبين لدعوتِهم إلى الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: ٥٢].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤].

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠﴾ [الإسراء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٦٣﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل ويطلب منهم أن ينصروه حتى يبلِّغ رسالة ربه. فلما أسلمت قبائل الأوس والخزرج سَمَّاهم (الأنصار) وأخذ منهم البيعة على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم. فمن كان مقتدياً برسول الله ﷺ فعليه بهذا السبيل الذي هو أن ينصر الحق بالطريقة التي نصره بِها رسول الله ﷺ إن الإقتداء بِهديه ﷺ لا يتمّ بإعفاء اللحي وترك الإسبال في اللباس والخشوع في الصلاة وغير ذلك من الأعمال الشّرعية التي يأتي بِها المسلم بمفرده. إن الإقتداء بِهديه ﷺ لا يتمُّ حتى يسلك المسلم مسلكه ﷺ في نصر الحق وإظهار دين الله على الأديان، وإن كان ذلك أمراً شاقّاً في ظاهره يحتاج إلى بذل النّفس والمال، فليس هو مخيّر في ذلك:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب:٣٦].

قال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب:٢١].

فمن النفاق أن نتّخذ رسول الله ﷺ قدوتنا في الأمور السهلة اليسيرة ولا نتّخذه في الأمور الشاقّة العسيرة، كما أنّه من الجهل والعجز أن نقول: إنه ﷺ أُسوتنا في كل شيء، ثم لا نجتهد في فهم أهدافه وأحواله وهديه العملي في كل الشئون. وإليك بعض الأحاديث التي هي مما قالها عن نفسه ﷺ:

«ألا إنّ ربِّي أمرني أن أُعلِّمَكُم ما جهلتم يومي هذا: كل مال نَحلْتُهُ عبداً حلالٌ. وإنِّي خلقتُ عبادى حنفاء كلّهم وإنّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بِي ما لم أنزل به سلطاناً.وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربَهم وعجمهم إلاّ بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان، وإن الله أمرنى أن اُحرّق قريشاً.فقلت:رب إذاً يثلغوا رأسى فيدعوه خبزةً، قال إستخرجهم كما إستخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فسننفق عليك.وابعث جيشاً نبعث خمسةً مثلُه، وقاتل بمن أطاعك من عصاك». [مسلم].

وقال ﷺ: «بُعثتُ بين يدي الساعة ليُعْبَدَ الله وحده، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي، وجُعِل الذلّة والصغار على من خالف أمرى». [الترمذي].

وقال ﷺ: «أنا نبيّ التوبة أنا نبيّ الملحمة» [أحـــمد].

وقال ﷺ: «أنا الضّحوك القتال» [مجموعة الفتاوي].

وقال ﷺ: {والّذي نَفسي بيده لوددتُ أني أُقتل في سبيل الله ثّم أحيا ثّم أقتل ثّم أحيا ثّم أقتل) [متفق عليه].

وقال ﷺ: «والّذي نفسي بيده لأقاتلنَّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتى. ولينفذنّ الله أمره» [البخاري].

(الثالث)إن المسلم مأمور بجهاد الكفار حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين لله.

قال تعالى: ﴿**وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ**﴾ [الأنفال:٣٩].

وليس له أن يبخل بنفسه وماله، وإلاكان خارجا عن صفّ المؤمنين.

قال تعالى: ﴿**۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ**﴾ [التوبة:١١١].

وهذه الفريضة لا يقدر على أدائها إلاّ الجماعة المتّحدة الكلمة، التي تتلقّى الأوامر من مصدر واحد. فالجهاد إذاً متوقّف على وجود الجماعة، فبناؤها يكون واجباً كذلك، لأنّ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فمن كان صادقاًفي إيمانه بفريضة الجهاد في سبيل الله لا بدّ له من أن يؤمن بضرورة بناء الجماعة الإسلامية. وإلاّ كان كاذباً في إدعائه للإيمان بفريضة الجهاد في سبيل الله.ولقدكان عدد المسلمين العاملين في الجيوش الإسلامية التي كانت تعمل بأمر النبي ﷺ يبلغ ثلاثين ألفاً لما نزلت ﴿**إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ**﴾ [التوبة:٣٩].

فإذا كان القعود عن الجهاد لا يحلُّ للمسلم حتى وإن كانت للمسلمين قوةٌ ومنعةٌ، فكيف له أن يقعد عن تأييد المسلمين والإنضمام إلى جماعتهم في وقت لم يعد لديهم قوّة ومنعة وهم في أشدّ الحاجة إلى من ينصرهم ويقف إلى جنبهم، كما هو حال المسلمين الحقيقيين اليوم الذين يحاولون أن يكونوا مسلمين كما أراده الله لهم في ظلّ الحكومات الجاهلية المحاربة للإسلام. فليس لنا أن ننخدع بأقوال المحتالين المنافقين، الذين إعتادوا أن يقولوا نحن نؤمن بفريضة الجهاد ولا نؤمن بضرورة بناء جماعة إسلاميةً.ليس لنا أن ننخدع بهذا لأنه ظاهر التناقض، ولايصدر إلاّ ممن هان عليه أمر دينه. ويردّ عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرته وما هو معروف من التاريخ الإسلامي، الّذي لا يحفظ جهاداً إسلامياً ذا شأن تمّ بدون جماعة وقيادة إسلامية مطاعة.

إنَّ المسلمين جنود الله في التصور الإسلامي، ويقاتلون في سبيل الله. وإنَّ المشركين جنود الطاغوت ويقاتلون في سبيل الشيطان.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

فإذا تفرَّقت جنود الله وجنود الطاغوت مجتمعةٌ فلن يكون هناك قتال ودفعٌ للباطل، فيظل أهل الشرّ مسيطرين على رقاب العباد.

(الرابع) إن في كتاب الله قوانين دولية وإجتماعية كثيرة، وفيه حدود لايستطيع إقامتها الأفراد المتفرقون مالم يجتمعوا ويوحدوا كلمتهم ويكونوا جماعة إسلامية. فإن فعلوا ذلك وقُدِّرلهم السلطة والتمكين، فعندئذ يقدرون على إقامة تلك الحدود كما يريده الله.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١].

والمسلمون مأمورون بأن يحاولوا جهدهم المستطاع في تحسين أحوالهم، حتى يبلغوا درجة من القوّة يقدرون بها على إقامة كتاب الله، وإلاّ كانوا كالذين نزلت فيهم الأية: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ [المائدة :٦٨].

فالجماعة إذاً ضرورية لإقامة كتاب الله وتنفيذ الحدود والأحكام الكثيرة التي يحتويها.

(الخامس) إن الإنسان إذا أسلم وحسن إسلامُه تنقطع المودة والموالاة بينه وبين أقرب أقربآئه، بل إنّهم في أكثرالأحيان يعادونه ويحاولون أن يفتنوهُ عن دينه. فإن حدث ذلك يكن المسلم في حاجة إلى إخوة في الدِّين، يجد فيهم التوجيه والإرشاد والتثبيت، والتواصي بالحقّ، ويقاسمونه المشاكل والمتاعب التي تواجهه، والتي تنشأ عن الروابط والوسائل المنقطعة بسبب العقيدة. فإن وجد المسلم هذه الجماعة فإنه يكون في ملجأ ومأمن من كثير من الوساوس الشيطانية،التي تلاحق المسلم في أول إسلامه وهو يقاوم ضغط المجتمع الجاهلي، ويواجه المحن والشدائد بمفرده. فالجماعة إذاً ضرورية لصيانة الإنسان من وساوس الشيطان.

وقد جاء في الحديث: «فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد» [أحـــمد].

وقال ﷺ: «فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» [أبو داود].

(السادس) إن لدين الله أعداءً يتربّصون به ويجتهدون في محوه وإزالته من قلوب معتنقيه وعقولهم بالقوة والإغراءوالتعليم الفاسد، ولايتردّدون في قتل المئات والآلاف إذا سنحت لهم الفرصة.ويشهد لهذا القرآن والتاريخ.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا** ﴿١٠١﴾﴾ [النساء:١٠١].

وقال تعالى: ﴿**لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ** ﴿١٠﴾﴾ [التوبة:١٠].

وقال تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ**﴾ [البقرة:٢١٧].

وقال تعالى: ﴿**إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ** ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة:٢].

وهذا الّذي تقرّره الآيات قد عُرف أنه الموقف الطبيعي الذي يحفظه التاريخ للكفار في كلّ بقعة تغلبوا على المسلمين فيها. فمذابح الصليبين في الأندلس والشام معروفة، وكذلك التتار وأفاعيلهم الوحشية في المشرق الإسلامي وعاصمة الخلافة الإسلامية مسجّلة في التاريخ. وبعد ذهاب سلطان المسلمين والخلافة الإسلامية لم تنته بعد الحروب الصليبية، ولا يزالون يطاردون المسلمين الحقيقيين بواسطة عملائهم الذين يتسمّون بأسماء المسلمين، الذين هم في الحقيقة قيادات رمزية خاضعة لنفوذ الصليبيين والصهيونيين الكفرة. فوجود الجماعة الإسلامية ضروريٌّ للدفاع عن الإسلام المهدّد ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣].

إذا عرفتَ أنّ ميلاد الجماعة الإسلامية في المجتمع الجاهلي ضرورية، فيجب أن تعرف على التحديد ما هي أهداف الجماعة الإسلامية؟.

إنّ الهدف الرئيسي للجماعة الإسلامية يجب أن يكون بلوغ رضى الله وجنّته والنجاة من سخطه وناره.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان:٦٣-٦٦].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ [الشعراء:٨٣-٨٥].

ولكن الله تعالى أخبر أنّ هذا الهدف الرئيسي لايتحقق بالأماني والدعاوى، وإنما يتحقق بالعمل والسعي والجهاد حتى يكون الدين كلّه لله وأن الجنة لا يدخلها إلا من إشتراها من الله بنفسه وماله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩٥].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ٢١٤﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ٨٩﴾ [التوبه:٨٨-٨٩].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبه: ٣٣].

فإذا كان هذا ما قرّره الله في محكم كتابه فلابد أن يكون من أهداف الجماعة الإسلامية إلغاء الجاهلية وإحلال الإسلام محلّها، وأن تكون وسيلتها في تحقيق هذا الهدف:

(١) **البيّان**: أي الدعوة إلى الإسلام الحقيقي وتصحيح مفاهيم المنحرفين عنه.

(٢) **الحركة**: أي بناء الجماعة الإسلامية التي يتمثل فيها منهج الله، والتي تكون أسوة وقدوة لغيرها في تطبيق الإسلام، وحَمل راية الجهاد في سبيل الله، والجهاد يحتاج إلى إعداد العدّة والقوّة من الرجال والسّلاح والمال.

كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وليس البيّان وبناء الجماعة مرحلتين بينهما فترة زمنية وإنما هما عملان يتّمان في آن واحد، لأن أول من يستجيب للدعوة والبيان سيكون اللبنة الأولى لبناء التّجمع الإسلامي. وقد كانت الجماعة الإسلامية الأولى في وقت من الأوقات تتكوّن من النبي ﷺ وأبى بكر،وخديجة، وزيد ابن حارثة، وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم. ثم إستمرّت الدعوة والبيان فأستجاب لها :عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف. فانضموا إلى الجماعة فأزداد عدد أفرادها. وهكذا كلّما استجاب للدعوة فردٌ أو أفرادٌ كانت الجماعة تنموا وتقوى ويكثر

أنصارها ودعاتَها، وبالتالي يكبر تأثيرها في المجتمع الذي كان يأتي بردّ فعل عنيف غضباً لعقائده ونظامه العريق، ولكن ذلك لم يكن يزيد الدعوة إلاّ انتشاراً، والجماعة إلا قوةً، فكانت الجماعة الأولى كما قال الله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩].

وهذا هوالطريق الصحيح لنشأة كلّ جَماعة إسلامية.

قال سيد قطب (رحمه الله): "يجب أن يعرف أصحاب هذا الدِّين جيداً أنه -كما إنه في ذاته دين ربانيٌّ- فإن منهجه في العمل منهج ربانيٌّ كذلك. متوافٍ مع طبيعته، وإنه لا يُمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل" . [معالم في الطريق].



(٥) المواصفات المطلوبة للجماعة

إن نيل المؤمنين رضي الله وجنّته وعدٌ صادقٌ من الله، وإنتصار الحقّ على الباطل والإسلام على الجاهلية وعدٌ صادقٌ كذلك من الله. وهذه الوعود لا تتحقق حتى تتصف الجماعة بالصفات المبيِّنة في القرآن التي جعلها الله صفات المؤمنين، إنّها لا تتحقّق لأنّ جَماعة من الناس قالوا: نحن مؤمنون دون أن يكون الإيمان حقيقة يعلمها الله من نياهم وأعمالهم .

ومن هذه الصفات:

(الأولى): (الإيمان بالله والتوكل عليه والثقة بوعده)

يجب أن يكونوا مؤمنين بالله إيماناً حقيقياً بالنيّة والقولِ والعمل .

قال تعالى: ﴿**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ**﴾ يجب أن يعرفوا الله معرفةً صحيحةً، وأن يعتقدوا أنه هو (الملك الواحد القَهَارُ)، وأن ملوك الأرضِ وجبابرتِها وجَميع قُوَىْ الشرِّ والطغيانِ عبيدً تحتَ قهرةِ وسلطانهِ، وهو آخذٌ بنواصيهم:

قال تعالى: ﴿**هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾**﴾ [الزمر:٤].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾**﴾ [ص: ٦٥].

قال تعالى: ﴿**لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾**﴾ [غافر: ١٦]

وقال تعالى: ﴿**مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ**﴾ [هود: ٥٦].

إنّ المؤمنينَ أعلى سنداً وأعزُ جنداً من أعدائهمْ لأَنَّهُم جندٌمن جنود (اَلْمَلِكِ الوَاحِدِ القَهَار).

قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ**﴾ [الفتح: ٧].

وقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ [المنافقون: ٧].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾**﴾ [فاطر:٤٤].

وأعداؤهم أعداءُ الملكِ الواحدِ القهار، فهُم مغلوبون مقهورون ولا ينصرون.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾**﴾ [المجادلة: ٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾**﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فلا يجوز أن يُقعدهم الخوف من أولياء الشيطان عن العمل لكتاب الله،بعد معرفة حقيقة الأمر والفارق الذي بينهم وبين أعدائهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

والمؤمنون دخلوا المعركة ضدّ قوى الشرّ بأمرِ وتوجيه الملك الواحد القهار، فلا يجوز لهم الظنّ بأنّه سيتخلّى عنهم ويتركهم وحدهم يقاومون قوى الشرّ العالمية، ليس لهم أن يظنوا هذا الظنّ السُوء باللهِ، فهو أكرمُ وأرحمُ وأعدلُ من ذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال: ١٩].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقد أ خبر اللهُ في كتابه أنه كان دائماً يُعزّ أولياءه ويذلّ أعداءه. فيجبُ الثقة بوعد الله لأنّهُ لا يُخلِف المِيعادِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١].

ويجب على المؤمنين أن يتوكّلوا على اللهِ:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

قال أبوبكر الصديق رضي الله عنه "من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد ماتَ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت".

وقال سعيد بن جبير: "التوكُّل جـــماع الإيمان".

ويجب أن يعرفوا أنّهم سيزدادون معرفةً بالله كلّما إزدادوا طاعةً وخضوعاً لأوامره. وأن الله تعالى سيُعطيهم نوراً يكشف لهم الحقائق. فلا يضلّون في متاهات الشبهات والشهوات.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة :٢١٣].

(الثانية) (التجمع على آصرةِ العقيدة)

يجب أن تكون الجماعة الإسلامية جماعةً عالميةً مفتوحةً لجميع أجناس البشر، على إختلاف الألوان واللّغات، لأنّ الله هو الّذي أراد أن يتجمّع المؤمنون على آصرة العقيدة، دون أواصر اللّون واللغة والقوم والقبيلة والحرفة. وقد فرّق الناس كلّهم إلى فرقتين هُما :أولياؤه وأعداؤه. أوحزب الله وحزب الشيطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال رسول الله ﷺ «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «وكونو عباد الله إخواناً» [مســلم].

فدلّ الكتاب والسّنة على أن المؤمن أخٌ للمؤمن، وإن كان بعيد الدار والنَسبِ. وقد كانَ ﷺ يُقاتل قريشاً قومه، وقتلَ منهم سبعين من أشرافهم وصناديدهم ببدر، في وقتٍ كانت الأنصارُ أحبّ الناس إليه. وقد قال عنهم: «لو سلك النّاسُ شعباً وسلكتِ الأنصارُ شعباً لسلكتُ شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت إمرءاً من الأنصار»} [البخاري].

وقال ﷺ: {الأنصارُ لا يُحبُّهم إلاّ مؤمن، ولا يُبغضهم إلاّ منافق، فمن أحبّهم أحبّه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله} [البخاري].

وقال ﷺ: «الأنصارُ كرشي وعيبتي» [متفق عليه] أي: بطانتي وخاصتي.

وذلك لما كانوا عليه من حسن الإسلام ونصرةِ النبيّ ﷺ والوفاء بالعهود والصدق عند اللقاء. لم يكونوا أقرباء النبي ﷺ في عمود النّسب، ولكنّ الإيمان رفعهم إلى تلك المنْزلة العالية.

وكان بلال ﷺ من خواص صحابتة، وكان ﷺ عبداً حبشياً أعتقه أبوبكر ﷺ بعد إسلامه.

وقال ﷺ عن سلمان الفارسيّ: «سلمان مناّ أهل البيت» [الطبراني والحاكم].

وكان ﷺ يُحبُّ زيد بن حارثة وابنه أسامة. وكان من صحابته عمّار، وخباب وصهيب الروميّ. وهؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم إرتفعت منْزلتهم عند النبي ﷺ وعند المسلمين بسبب حسن إسلامهم وجهادهم، بعد أن كانوا في الجاهلية من العبيد والموالي.

لقد تعلّم المسلمون الأوائل من القرآنِ أن لا وزنَ لروابط القرابة والنسب إذا إنقطعت رابطة العقيدة، وأن الّذين تَجمعهم العقيدة في الله لا يفتقرون إلى قرابة النسب والمصاهرة كي يكونوا إخوةً. وإنّما هم إخوةٌ بالإيمان بالله وحده.

جاء في القرآن مثالٌ للأب المؤمن والإبن الكافر في قصة نوح ﷺ الّذي أهلك الله ابنه مع الكفار.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

وجاء فيه مثالٌ للأب الكافر والابن المؤمن في قصة إبراهيم ﷺ الّذي إعتزل أباه وقومه لما أصرّوا على الشرك.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ۝٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ۝٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ۝٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ۝٤٥ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ۝٤٦﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

وجاء فيه مثالٌ للرجل المسلم وزوجته الكافرة في قصة امرأة نوح وامرأة لوط.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم: ١٠].

وجاء فيه مثال للمرأة المؤمنة والرجل الكافر في قصة "آسية" امرأة فرعون.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١١﴾ [التحريم: ١١].

وجاء فيه مثالٌ للشباب المؤمنين في البيئة الكافرة في فتية أصحاب الكهف:

قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤

هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف: ١٣-١٦].

وهذه القصص والأمثلة المتنوعة تدلُّ على أن الله لا يريد للبشر أن يتجمّعوا على آصرةٍ غير آصرة العقيدة، وأن المسلم لا يتّخذ أقرباءه من أهل الشرك إخوة في الدِّين، وأن الإختلاف في العقيدة تنشأ عنه براءة الأبّ من الإبن والإبن من الأب، وبرآءة الزوج من الزوجة والزوجة من الزوج. وهذه حكمةُ أحكم الحاكمين .

إن القيمة العليا في ميزان الله هي قيمة الإيمان، فيجبُ أن يكون التفضيل بين الأشخاص قائماً على أساس الإيمان والتقوي والعمل الصالح. ويجب أن يتحرّر المؤمنون من كل القيم الجاهلية التي كانوا يزنون الأشخاص والأحداث على أساسها في جاهليتهم.

إن الإنسان الجاهليّ يُعظِّم ويَحترم بعض الأشخاص لأنَّ لهم أموالاً كثيرة، أو لأنّهم من بني فلان، ويحتقر آخرين لأنّهم ينتسبون إلى أجدادٍ مجهولين، أو لأنّهم من ذوي الألوان السُود، أو الحمر، أو لأنّهم من الطبقات الفقيرة.

إن الإسلام لا يعرف هذه التفرقة الجاهلية، ولا يزنُ الأشخاص بهذه الموازين والقيم الجاهلية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالإنسان الكريم هو التقيّ في ميزان الله، وإن كان خالياً من كل هذه الإعتبارات الجاهلية، كما بيّنه الله تعالى وهو خير الفاصلين.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٧-٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف :٢٨].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٢-٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [مريم:٧٣-٧٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة:٢١٢].

عن أبي هريرة ﷺ أن رسو ل الله ﷺ قال: «ربّ أشْعَثَ أَغبَرَ مَدفُوعٍ بالأبْوَابِ لَوْ أقسَمَ على الله لأبره» [مسلم].

(الثالثة) (الأخوة في الله) :

إذا عرفتَ أن المؤمنين إخوةفي شرع الله. فاعلم أنّ هذه الأخوة أعلى قدراً من أخوة النسب كما يدلُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ على أن الأخوة الحقيقية هي التي جعلها الله بين أوليائه المؤمنين..وأنّها محصورة فيهم ولا تتعدى إلى غيرهم. إن الأُخوة في الله تتحقّق مع تباعد الناس في النسب، فيتولّى المؤمنون بعضهم بعضاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٥-٥٦].

أما "أُخوة النسب" فمفتقرة إلى "الأخوة في الله" فإن إنعدمت "الأخوة في الله" لاتنفع "أُخوة النسب"وحدها،ولا تجعل المؤمن ولياً لأخيه في النسب إذا كان كافراً.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [النساء: ١٤٤]

فليس بين المؤمن وبين قريبه ونسيبه الكافر مودة وموالاة، وإن بقيت المصاحبة بالمعروف وصلة الرحم عندما لا يقاتلونه في الدّين ولايجهرون بطعن الإسلام ... فدلّ ذلك على أن الأخوة في الله أعلى قدراً من أُخوة النسب والقرابة.

وينبغي أن نعرف أن الله لا يريد منا أن نقول "نحن إخوة في الله" قولاً دون أن تتجلّى الأخوة في سلوكنا وعلاقاتنا والتعامل الّذي بيننا .. إن الله لا يريد منا ذّلك.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف: ٢-٣].

إنّ الله يريد منا أن نراعي حقوق الأخوة مراعاةً كاملةً هذه الحقوق المبيّنة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .يريد منّا أن نكون كالجسد الواحد في التعاطف والتراحم.

قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح:٢٩].

وقال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكي منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمى» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً. وشبك بين أصابعه» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «لايؤمن أحدكم حتي يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» [متفق عليه].

وقال ﷺ أيضاً: «المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله. كلّ المسلم على المسلم حرامٌ عرضه وماله ودمه. التقوى ها هنا، بحسب إمرئٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم» [الترمذي].

وقال ﷺ: «لا تحاسدوا، ولاتناجشوا، ولا تباغضوا، ولاتدابروا، ولايبع بعضكم على بيع بعض.وكونو عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يحقره، ولا يخذله. التّقوى ها

هنا. ويشير إلى صدره ثلاث مرّات، بحسب إمرىءٍ من الشرّ أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» [مسلم].

وقال ﷺ: «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فقال رجلٌ يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً، أرأيت إذا كان ظالماً، كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره» [البخاري].

وقال ﷺ: «حق المسلم على المسلم ستٌّ: إذا لقيته فسلم عليه، إذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمتّه، وإذا مرضَ فعُده، وإذا مات فاتبعه» [مسلم].

وكان لتوجيهات القرآن وتوجيهات النبيّ ﷺ أثرٌ كبير في غرس شعور "الأخوة في الله" في قلوب الجماعة المسلمة الأولى فكانوا كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩]

وينبغي أن نعرف كذلك أن التآخي والتحابي والتآلف الّذي بين المؤمنين إنما جاء من عند الله، وهو الّذي ألّف بين قلوبهم كما قال تعالى: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الأنفال:٦٣].

فإذا زال الإيمان من القلوب، وعمل الناس بخلاف كتاب الله ونسوا حظاً منه، فسيزول تبعاً لذلك التآلف والتآخى والتحابى، وسيحلّ محلَّه التباغض والتحاسد والعداء. وهذه سنة إلهية قد تحقّقت فيمن قبلنا من أهل الكتب

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَـٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَـٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ۝١٤﴾ [المائدة :١٤].

وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصى نَهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم مع أنّهم لم يرجعوا عن ضلالهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨﴾ فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً فقال: لا والّذي نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً».

وقال رسول الله ﷺ: «عباد الله،لتسوُّنَ صفوفكم أوليخالفن الله بين قلوبكم» [متفق عليه].

وقال ﷺ أيضاً: «ما من ثلاثة في قرية ولا بدوٍ لاتقام فيهم الصلاة إلاقد إستحوذ عليهم الشيطان، فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» [أبوداود].

وتحقّقت هذه السنة كذلك في المسلمين لما نسوا حظاً من كتاب الله، وأتبعوا سنن اليهود والنصارى، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، فاختلفوا وتفرّقوا وضعفوا كثيراً عن ردّ هجمات الأعداء. وهم الذين كانوا سادة العالم، ودانت لهم مشارق الأرض ومغاربِها، يوم أن كانوا مؤمنين حقيقيين متآخين في الله إلى أن سقطت (بغداد) في يدّ المغول (التتار)، وكانت عاصمة الخلافة الإسلامية في سنة٦٥٦هـ، وكان ما كان من القتل والإبادة الوحشية التي لم يعرف لها مثيل. وكذلك سقطت الأندلس والشام في قبضة الصليبيين، فوقع شبه ما وقع في بغداد من القتل والإبادة والتشريد.

ثم كان المسلمون ينتصرون كلما عادوا إلى الله وإلى العمل بكتابه، كما كان الحال في الشام ومصر في أيام صلاح الدين يوسف، ونور الدين محمود. وبعدهم أيام دولة المماليك، بفضل جهود العلماء الصلحاء "كالعزّ بن عبد السلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية" وغيرهم .

وقد بلغ الضعف والبعد عن كتاب الله منتهاه في القرون الأخيرة. وتنكّر الكثيرون لدينهم وقلّدوا الغربيين. واستمدوا منهم النظم والشرائع ومبادىء العمران والمدنية فصاروا غثاء كغثاء السيل .. فأذلهم الله وأهانهم .. وأصبحوا اليوم يعرفون (بالعالم المتخلف) أو (العالم الثالث) بعيدين عن عزّ الدنيا والآخرة.

(الرابعة) الطاعة للقيادة

تقوم النظرية الإسلامية للحكم والسياسة على القواعد الأتية:

(أ) إن الله تعالى هو الملك الحقيقى لهذا الكون، وهو مصدر الحكم والتشريع للمجتمع الإسلامي الّذي رضى بالله ملكاً وربّاً، وكفر بملوك وأرباب الأرض. وكلّ ما يصدر من الله من الأوامر والنواهي يجب أن يمتثل به المسلمون وينفذوهُ وهذا الأمتثال والتنفيذ هو العبادة المطلوبة وهو معنى (لا إله إلا الله).

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف: ٤٠].

(ب) إن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ ليطيعه الناس في كل ما يبلغهم عن الله من كتاب وحكمة.فمن أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله. وهذا هو معنى (محمد رسول الله).

قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾ [الشعراء: ١١٠].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء:٦٤].

وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

(ج) وبعد وفاة النبي ﷺ يجب أن يكون للمسلمين أميرٌ أو خليفةٌ يحملُ الناس على طاعة الله ورسوله، ويختاره المسلمون من بينهم .. وتكون طاعته واجبة ومن طاعة الله ورسوله، عندما يكون هو منقادا لكل ما ثبت عن الله ورسوله بنصٍ صريح.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

وقد بين النبي ﷺ أن العاصي للأمير المسلم يكون عاصياً لله ورسوله وعليه إثم عظيم. فقد جاء في الأحاديث الثابتة:

«من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولاحجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» [مسلم].

وقال ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله. ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «إسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشيٌ كأن رأسه زبيبة» [البخاري].

وقال ﷺ: «من فارق الجماعة شبراً فقد خلع الإسلام من عنقه» [أبوداود].

والأمير المسلم ليس بمعصوم، فإن أَمر بمعصية لايحلُّ للمسلم أن يطيعه فيها، وقد جاء في الحديث: «إنما الطاعة في المعروف». [متفق عليه].

والحديث: {على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ وكره، إلا أن يؤمر بِمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة} [متفق عليه].

ولكن لا يجوز للمسلم أن يخلع يده من الطاعة والبيعة إلا إذا رأى كفراً بواحاً. كما جاء في الحديث: «إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله برهان» [متفق عليه].

قال أبوبكر الصديق ﵁ لما اختاره المسلمون لمنصب الخلافة: «أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»

(د) وإذا تنازع الأمير وغيره في أمر قد بين حكمه في نصّ صحيح صريح، يجب الأخذ بالقول الموافق للنصّ، ويجب على الأمير أن يرجع إلى هذا القول إن لم يكن قوله.

كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]

أما إن لم يكن لهذا الأمر المختلف فيه نصٌ صريح، أو اختُلِفَ في فهم النصّ الوارد فيه. أو كان الإختلاف فيه قديماً بين فقهاء المسلمين. فكل هذه الحالات الإجتهادية.

للأمير أن يحمل الناس على رأى واحد يختاره بعد إستشارة أهل العلم. وهذا إذا كان الإختلاف في الأمر المعين مما يفرّق وحدة المسلمين وإتّفاق كلمتهم.

كما قال عبد الله بن مسعود ﵁: أكره الخلاف أو كلمة نحوها. لما صلَّى خلف عثمان ﵁ أربع ركعات. وكان رأيه أن تصلّى ركعتين. وكان عثمان أمير المؤمنين يومئذ.

كان عمر ﵁ يطيع أبابكر في أمور يخالفه فيها في الرأي .. كتسوية المسلمين في العطاء، وكان عمر يرى تفضيل السابقين في العطاء. وكتأمير خالد بن الوليد في الحروب، وكان عمر يرى عزله عن القيادة. ثم عمل برأيه في خلافته. ولم يخالفه المسلمون كما لم يخالفوا أبابكر من قبل، لأن كليهما كان مجتهداً. مأجوراً على كل حال كما جاء في الحديث: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم واجتهد فأخطأ فله أجرٌ» [متفق عليه].

وهذه هي أهمّ القواعد التي تقوم عليها النظرية الإسلامية للحكم والسياسية، وهي تخالف مخالفة أساسية كل النظريات الجاهلية للحكم والسياسية والتشريع،التي تعطي البشر حقّ التشريع للعباد، وتَجعله مصدر السلطات، أي تَجعل البشر آلهةً "وأرباباً" من دون الله.

والمسلم المحافظ لدينه ليس أمامه مجال للتفاهم والإصطلاح مع الجاهلية الحديثة، سواء ادّعوا الإسلام أو لم يدّعوه. وليس أمامه إلا السعي والعمل في تكوين الجماعة المسلمة التي تعتبر الخطوة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي الكبير القائم على الأصول التي قرّرها الله ورسوله.

والجماعة الإسلامية الناشئة تعتبر صورة مصغرة للمجتمع الكبير. فيجب أن يكون واقعها ترجمة صحيحة للإسلام عقيدةً وخلقاً وسلوكاً. ويجب أن يكون مفهوماً لديها أنّها لا تستحق من الله العون والتاييد والنصر حتى تخلص عملها لله وتتجرّد له، وحتى تتخلص من النفاق في الإعتقاد والعمل، وحتى تحبّ من تحبّه لله، وتبغض من تبغضه لله. وحتى تطيع قيادتَها طاعةً صحيحة لا إكراماً لشخصٍ، ولكن إبتغاء وجه الله وطاعة لله ولرسوله. ويجب أن تختار لقيادتَها الّذين يعرفون قدرها.. ويعرفون أنّها أمانة، وأنّها يوم القيامة خزىٌ وندامة كما في الحديث «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة» [البخاري].

فلا يقوم لهذا الأمر إلا الذّين لهم هذه المعرفة، وهذه الخشية من محاسبة الله. فيهابون حَملها ويودّون أن غيرهم كفاهم. كما جاء في الحديث: «تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا .. وتجدون خيار الناس في هذا الشأن أشدهم كراهية له. وتجدون شرّ الناس ذا الوجهين الّذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه» [متفق عليه].

ويجب أن لا يختاروا للولاية والقيادة أحداً سألها، أو حرص عليها.. كما جاء في الحديث «إنا والله لا نولّي هذّا العمل أحداً سأله، أو أحداً حرص عليه» [متفق عليه].

لأن هذا السؤال وهذا الحرص دليل على قلّة معرفته بحقيقة الأمر وخطورته، والمسئوليات التي يضعها على عاتقه.. والتي يكون وراءها السؤال والحساب الإلَهي الدقيق.

وفي الحديث: «قال أبوذر :قلت: يا رسول الله ألا تستعملني، فضرب بيده على منكبي. ثم قال: يا أباذر، إنك ضعيف، وإنّها أمانة وإنّها يوم القيامة خزى وندامة، إلاّ من أخذها بحقّها وأدّى الّذي عليه فيها» [مسلم].

وفي الحديث «يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل ألإمارة، فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وُكلتَ إليها» [متفق عليه].

(الخامسة): الجهاد في سبيل الله

إن الله تعالى أوجب الجهاد في سبيل الله على عبادة المؤمنين، حتى لا تكون فتنة ويكون الدّين كله لله. ومعنى الجهاد: هو بذل الجهد المستطاع في سبيل هذه الغاية. وكل ما يبذله المسلم من جهود وأعمال لإعلاء كلمة الله ولإظهار دينه على الأديان تعتبر من "الجهاد في سبيل الله" في ميزان الإسلام. ويجب أن تكون نيّة الجهاد صادقة عند المسلمين، وأن يبذل كل منهم ما في وسعه، كي تكون كلمة الله هي العليا .. لينال رضى الله وجنته. وقد مرّ الجهاد الإسلامي في حياة النبي ﷺ بمراحل مختلفة لا بدّ من معرفتها:

المرحلة الأولى:

وهي الجهاد بالحجة والبيان: أي دعوة أهل الشرك إلى الإسلام وإلى شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإسماعهم القرآن الّذي كان يُبيِّنُ لهم عقائدهم وأعمالهم الشركية الفاسدة .. ويريهم ما في هذه العقائد والأعمال من كفر بأنعم الله. وكانت هذه الدعوة شديدة عليهم، ولذلك كانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه. وكان الله يأمر نبيه بأن يستمرّ في جهاده .

قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفرقان :٥٢].

وكان من الجهاد الّذي قام به رسول الله ﷺ في هذه المرحلة تربية الأفراد الذين استجابوا للإسلام، وآمنوا به، وتزكية عقائدهم ومشاعرهم وسلوكهم وإعدادهم لحمل الأمانة وتبليغ الرسالة ..وكانت (دار الأرقم) المركز الّذي كانوا يجتمعون به. وقد كان الذين ربّاهم النبي ﷺ في هذه المرحلة دعاة الإسلام وقادة المسلمين فيما بعد، وهم الذين أقاموا دين الله في صورة نظام عالميّ، وكان منهم أبوبكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، ومصعب بن عمير، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن مظعون، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعمار، وبلال، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبو حذيفة بن عتبة، وغيرهم. وكان الجهاد باليد في هذه المرحلة محرّماً لحكمةٍ يعلمها الله.

وكان المؤمنون مأمورين بالصبر على أذى المشركين، والإعراض عن الجاهلين.

قال الله تعالى: ﴿كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء:٧٧].

وقال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٤].

وقال الله تعالى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٌۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [الزخرف: ٨٩].

وقال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف :١٩٩-٢٠٠].

وقال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص:٥٥].

المرحلة الثانية

وهي الجهاد بالسيف والسنان: وقد مرّ بأدوار ثلاثة:

(الدور الأول) وكان مأذوناً فيه، ولم يكن واجباً، وذلك لما نزلت الآيه:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٣٩-٤١].

وبعد نزول هذا الإذن كان رسول الله ﷺ يبعث سراياه ليقطعوا طرق التجارة على قريش، التي ظلمت المسلمين وأخرجتهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا "ربنا الله" حتى قتلت السّرية التي قادها "عبد الله بن جحش" "عمروبن الحضرمي" في آخر شهر رجب من السنة الثانية للهجرة. ثم كانت غزوة "بدر الكبرى" في رمضان من هذه السنة، والتي إنتصر فيها المسلمون إنتصاراً حاسماً على أعدائهم المشركين.

(الدور الثانِي) فرض الجهاد بالسيف على المسلمين ضدَّ الذين يقاتلونهم من المشركين دون الذين لا يقاتلونهم.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: ١٩].

(الدور الثالث) فرض على المسلمين جهاد المشركين كافة، حتى لا تكون فتنة في الأرض، وأن يبدؤا بمن يلونَهم ثم الذين يلونَهم. وهذا هو الحكم النهائي لأحكام الجهاد الّذي نزلت به سورة "براءة".

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣].

وهذا هو الحكم الأخير الّذي سار عليه النبي ﷺ في آخر حياته .. وسار عليه الخلفاء الراشدون، ومن بعدهم من أمراء المسلمين في جَميع عصور القوة، قبل الضعف التدريجي الّذي أصاب المسلمين بفعل ذنوبِهم.

وقد توفي رسول الله ﷺ بعد أن دانت له الجزيرة العربية كلها، وأسلمت قبائل العرب. وصار للمسلمين قوّة عظيمة تستعدّ لقتال الروم والفرس، الذين أبوا أن يستجيبوا للدعوة الإسلامية ..

ولما وَلِيَ أبوبكر الخلافة إشتغل بحروب أهل الردّة في السنة الأولى من خلافته.

ثم بعد الإنتصار في هذه الحروب، وجَّه الجيوش إلى تُخوم الفرس والروم. ففتح المسلمون العراق، ودخلوا عاصمتها الحيرة بقيادة خالد بن الوليد. وتوفّي أبوبكر رضي الله عنه وقد بدأت الحروب في الشام بين المسلمين والروم، وانتصر المسلمون في معركة يرموك.

وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنتصر المسلمون في معارك كثيرة أهمها "القادسية" بقيادة سعد بن أبي وقاص، وعلى أثرها سقطت "المدائن" عاصمة الفرس وفرّ ملك الفرس. ثم إستولى المسلمون خراسان، وأذربيجان، وأرمينيا، وجميع أراضي إيران.

وكذلك استولى المسلمون على الشام كلها، وفتحوا مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه. وفي خلافة عثمان رضي الله عنه إستولى المسلمون على "جزيرة قبرص" بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وأنتصر المسلمون على الروم في معركة بحرية عظيمة سميت بـــ"ذات الصوارى". وكذلك هزم المسلمون جموع البربر في شمال أفريقيا، وقتل ملكهم "جرجير".

و لم يكن المسلمون في حروبهم يقبلون من الكفار إلا واحدة من ثلاث:

(الأولى) الإسلام، فإن أبوا عرضوا عليهم

(الثانيـــة) الجـــزية، فإن أبوا إستعانوا بالله وكانت

(الثالثـــة) القـــتال.

وكان المسلمون غالباً ينتصرون على أعدائهم، حتى أصبحت "الدولة الإسلامية" أقوى دولة في العالم. ومن لم يخضع لها لِبُعْدِهِ عنها كان على وَجَلٍ منها .. وقد دخل الإسلام في قرنه الأول الهجري بلاد الهند. وأصبحت بلاد ما وراء النهر –وهي من أراضي السوفيت– اليوم جزءاً من العالم الإسلامي. وأصبحت مدن "البخاري" و"سمرقند" من مراكز الحضارة الإسلامية.

وكذلك دخلت "الأندلس" في طاعة الدولة الإسلامية في هذا القرن، وأصبحت فيما بعد من أهمّ المراكز العلمية والحضارية للعالم الإسلامي .. وبقيت كذلك ثمانمائة سنة حتى سقطت غرناطة ٨٩٨هـــ في أيدي الصليبيين الإسبان. في زمن الضعف والتفرّق.

والقرآن الكريم يُبْرِزُ أَهْمية فريضة الجهاد في سور وآيات كثيرة، فيها تحريض للمؤمنين ليؤدوا هذه الفريضة، التي لا ينالون عزّ الدنيا والآخرة إلا بقيامها.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة :٢١٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ

ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة:٢٩-٣٣].

وقال تعالى: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٤-٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة :٢٥١].

وكذلك كثُرتْ الأحاديث التي تحضّ على الجهاد وتُبيِّنُ فضله:

عن أبي هريرة ﷺ قال: سُئِل رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور». [متفق عليه].

عن ابن مسعود ﷺ قال قلت يا رسول الله أي العمل أحبّ إلى الله تعالى؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». [متفق عليه].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: أتى رجلٌ إلى رسو ل الله ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله»، قال: ثم من؟ قال: «مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله، ويدع الناس من شرّه» [متفق عليه].

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها» [متفق عليه].

وعن سلمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهرٍ وقيامه. وإن مات فيه أُجْرِيَ عليه عمله الّذي كان يعمل، و أُجْرِيَ عليه رزقه، وأمن الفتان» [مسلم].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قيل يارسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «لا تستطيعونه»، فأعادوا عليه مرّتين أوثلاث، كل ذلك يقول لا تستطيعونه. ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله، كمثل الصائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة ولاصيام» [متفق عليه].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مكلومٍ يُكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى: اللّون لون دمٍ والريح ريح مسك» [متفق عليه].

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في سبيل الله في أهله بخير فقد غزا» [متفق عليه].

وعن عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «ما أغبرت قدما عبدٍ في سبيل الله فتمسّه النار» [البخاري].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» [مسلم].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرّات، لما يرى من الكرامة».

وفي رواية: «لما يرى من فضل الشهادة» [متفق عليه].

وعن عروة البارقى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقودٌ في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم» [متفق عليه].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «من إحتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده،فإن شبعه، وريّه، وروثه، وبوله، في ميزانه يوم القيامة» [البخاري].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من علم الرمي ثم تركه فليس مني، أو فقد عصى» [مسلم].

وعنه قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة، ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي، ألا إنّ القوّة الرمي» [مسلم].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ في الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» [البخاري].

وقد بيّن القرآن كذلك ما للشهيد عند الله من فضل وكرامة. والشهيد هو المسلم المقتول في سبيل الله .. بأيدي الكفرة والمشركين. وقد أخبر الله أن الشهداء أحياء. وأنّهم قد نالوا الغاية التي لأجلها أسلموا وجاهدوا، وهي رضى الله والجنة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران ١٦٩-١٧١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ [محمد: ٤-٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨﴾ [آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٢].

عن جابر ﵁ قال: قال رجل: أين أنا يا رسول الله إن قُتلت؟ قال: «في الجنة، فألقى تمرات كنّ في يديه، ثم قاتل حتى قُتِلَ». [مسلم].

وفي حديث أنس ﵁ المتقدّم «أنّ الشهيد يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرّات، لما يرى من فضل الشهادة» [متفق عليه].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «يغفر الله للشهيد كلّ ذنب إلا الدَّين» [مسلم].

وعن سهل بن حنيف ﵁ قال قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الشهادة بصدقٍ بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه» [مسلم].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلاّ كانوا قد تعجّلوا ثلثي أجورهم. وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلاّ تَمّ لهم أجورهم» [مسلم].

(السادسة) الإنفاق في سبيل الله

إنّ الله تعالى يأمر المؤمنين بالإنفاق والبذل من أموالهم. ووصفهم بصفة الإنفاق.

قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وقال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢﴾ [آل عمران: ٩٢].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة:٣].

ووجوه الإنفاق كثيرة، منها:

(أ) الزكاة:

وهي مال معين يجب على المسلم أن يؤديه من ماله إذا بلغ النصاب وحال عليه الحول. والزكاة ركن من أركان الإسلام، قرنَها الله بالصلاة والتوحيد ..ولا يعدّ الممتنع من أدائها مسلماً.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥].

والزكاة تدفع إلى إمام المسلمين. وليس لأحد أن يتصرَّف في زكاة ماله ويعطيها لمن يشاء إذا كان للمسلمين إمامٌ. وكانت الزكاة تجمع في بداية السنة (المحرّم) في عهد النبي ﷺ.

ب - الإنفاق في سبيل الله

وهو ما ينفقه المسلم بنية الجهاد في سبيل الله، وليس له مقدار معيّن، وإنّما ينفقه بحسب قدرته، وهو يقّدر الظروف المحيطة بالمسلمين، فرُبَّما رأى أن الأمر يحتاج منه إلى أن يبذل ماله كله كما فعل أبوبكر رضي الله عنه في غزوة تبوك.

والمؤمن الّذي رضي بأن يبذل نفسه في سبيل الله لا يكون بذل المال عليه شديداً. وإنما يبخل بالمال من بخل بالنفسِ قبل ذلك. ولذا فإن الإنفاق في سبيل الله من أهمّ ما يميّز المؤمن من المنافق.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبه: ٤٤-٤٥].

وقد أمر الله بالجهاد بالمال مع النفس في مواضع من القرآن

قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة :٤١].

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف: ١٠-١١].

قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة :٢٦١].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة :٣٤-٣٥].

وقد سمّى الله المال المنفق في سبيله بالقرض. وكأن الله إستقرض من المؤمن ماله ليوفيه حقّه مضاعفاً يوم القيامة.. وذلك كي يطمئنّ المنفق، لأن الله لا يخلف الميعاد، وله خزائن السموات والأرض وله الأولى والآخرة.

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد :١١].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة:٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يستجيبون لدعوة الله إلى الإنفاق .. وكانوا يأتون بالمال إلى النبي ﷺ ليضعه حيث يرى أن المصلحة فيه .. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة

أكثر الأنصار بالمدينة مالاً، وكان أحبّ أمواله إليه "بيرحاء"، وكانت مستقبلة المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب.

قال أنس فلما نزلت قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾

قال أبو طلحة يارسول الله إن الله يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وأن أحبّ أموالي إليّ "بيرحاء" وإنّها صدقة لله، أرجوا برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «بخ، بخ، ذاك مالٌ رابحٌ ذاك مالٌ رابحٌ وقد سمعت، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة أفعل يارسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه» [متفق عليه].

قال عبد الله بن عمر: حضرتني هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ "فذكرتُ ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاءً أحبّ إليّ من جارية لي رومية، فقلت هي حرّة لوجه الله. فلو أنّي أعود في شيء جعلته لله لنكحتها" [أبو بكر البزار].

وفي الصحيحين أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسو الله لم أصب مالاً قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر، فما تأمرني به. قال: "إحبس الأصل وسبّل التمرة"

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لما نزلت هذه الأية ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾

قال أبو الدحداح الأنصاري: يارسول الله، وأن الله ليريد منّا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرِني يدك يارسول الله، قال: فناوله يده. قال: فإني أقرضت ربي حائطي. وله حائط فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها. قال: فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح! قالت: لبيك!. قال: أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل.

وفي رواية: أنّها قالت له :ربح بيعك يا أبا الدحداح. ونقلت منه متاعها وصبيانَها وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق ردّاح في الجنة لأبي الدحداح» [ابن أبي حاتم].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ بناقة مخطومة، فقال هذه في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعُ مائة ناقة كلها مخطومة» [مسلم].

وعنه أيضاً: «كان رسول الله ﷺ يأمر بالصدقة، فينطلق أحدنا فيحامل، فيجيء بالمدّ، وإن لبعضهم اليوم مائة ألف» [البخاري وأحمد].

عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدّق فوافق ذلك مالاً عندي. قلت: اليوم أسبق أبابكر -إن سبقته يوماً- فجئتُ بنصف مالي. فقال رسول الله ﷺ ما أبقيتَ لأهلك؟ قلت: مثله. وأتى أبوبكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر ما أبقيتَ لأهلك؟ قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله. فقلت لا أسبقه في شيء أبداً» [أبو داود والترمذي].

عن عثمان ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «من جهز جيش العسرة فله الجنة. فجهزه عثمان. وقال: من حفر بئر رومة وله الجنة. فحفره عثمان» [البخاري].

وعن عبد الرحمن بن خباب قال شهدتُ رسول الله ﷺ وهو يَحثُّ على جيش العسرة، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابِها في سبيل الله. ثم حضّ على الجيش، فقال عثمان: عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابِها في سبيل الله. ثم حض على الجيش، فقال عثمان: يا رسول الله عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابِها في سبيل الله. فنَزل رسول الله ﷺ وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه شيءٌ» [الترمذي].

وعن أنس وعبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنهما أن عثمان جاء إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة، فنثرها في حجره، فجعل رسول الله ﷺ يقلّبُها ويقول: «ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم» مرّتين. [الترمذي والحاكم].

وعند ما يكون الجهاد في مرحلته الأولى حيث لا وجود للدولة وبيت المال والغنائم، فإن إنفاق المسلم لماله من أفضل القربات عند الله.

قال تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ**﴾ [الحديد: ١٠].

وفي الحديث الصحيح: «لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحدٍ ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه».

(ج) الإنفاق على ذوى القربى والمساكين واليتامى وإبن السبيل.

وهذا أيضاً من وجوه الإنفاق المأمور به.

قال تعالى: ﴿**يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾**﴾ [البقرة :٢١٥].

قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي الحديث: «لاحسد إلا في إثنتين، رجلٌ آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته في الحق. ورجل آتاه الله حكمةً فهو يقضي بِها ويُعلِّمُها» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «ما من يوم يُصبح العباد فيه إلا ملكان ينْزلان، فيقول أحدهما:اللّهم أعط منفقاً خلفاً. ويقول الآخر: اللّهم أعط ممسكاً تلفاً» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «ما نقصتْ صدقةٌ من مالٍ. وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً. وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله ﷻ» [مسلم].

وقال ﷺ: «إن الأكثرين هم الأقلُّون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ..وقليلٌ ماهم» [مسلم].

وقال ﷺ: «شرّ ما في المرء شحٌّ هالعٌ وجبنٌ خالعٌ»

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «للسائل حقٌّ وإن جاء على فرس». [أبو داود/ مسند أحمد/ البيهقيّ/ ابن أبي شيبة/ ابن خزيمة].

وكان ﷺ يقول في دعائه: «وأعوذ بك من الجبن والبخل» [البخاري ومسلم].

أتى رجلٌ النبي ﷺ فسأله، فقال: ما عندي ما أعطيك، ولكن إئت فلاناً، فأتى الرجل فأعطاه. فقال رسول الله ﷺ «من دلّ على خيرٍ فله مثل أجر فاعله» [رواه مسلم وغيره واللفظ لأحمد].

ومن هذه النصوص الصحيحة تعلم أنّ الكرم والسخاء من صفات المؤمنين الصادقين، وأنّ الشحّ والبخل من صفات الكافرين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٣٧-٤٠].



(٦) سنن ثابتة

كما أنّ هناك سنناً إلهية كونية لا تتخلّف وتجري بمشيئة الله، مثل: إختلاف الليل والنهار، وإخراج الحيّ من الميّت، وإخراج الميّت من الحيّ، ودورة الكواكب والنجوم في أفلاكها، ونزول القمر في منازله، وتعاقب الأجيال، واستمرار الحياة بولادة الذكور والإناث. فهناك أيضاً سنن إلهية إجتماعية لا تتخلّف، وتجرى في حياة الناس بمشيئة الله. ومن هذه السنن:

(أ) وجود الإيمان :

الإيمانُ هو الفطرةِ التي فطر الله الناس عليها كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم : ٣٠].

وكما قال ﷺ: «كلّ مولودٍ يولد على الفطرة». [متفق عليه].

وقد خلق الله آدم عليه السلام وزوجته مؤمنين، بل إنّ آدم عليه السلام كان نبياً من أنبياء الله، ولما أسكنه الله الأرض وعده بأنه سينْزل (الهدى) إلى ذرّيته.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة :٣٨].

وقد وفي الله بعهده، وكان يرسل رسله كلّما كادت معالم الحقّ أن تنطمس.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وكان آخرهم محمد ﷺ أرسله الله إلى البشرية كافةً بعد أن تغيَّرتْ الكتب السابقة كالتوراة والانجيل بما أصابِها من التحريف. وأصبحت غير قابلة للاهتداء بِها. وكان الناسُ في ذلك الوقت في غاية الضلال والجهل. إلاّ بقايا من أهل الكتاب. وقد أنزل الله عليه القرآن، ووعد بحفظه من التبديل والتحريف.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وقد أخبر النبي ﷺ أن وجود أهل الحق من المؤمنين سيكون مستمراً إلى قُبيل قيام السّاعة.

فقد جاء في الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرّهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض الله الله» [رواه مسلم].

وقال ﷺ: «لا تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق، وهم شرّ أهل الجاهلية» [الحاكم].

فاذا عرفت أن وجود الإيمان "سنة ثابتة" فإنك ستعرف أن جَميع الجهود الجبّارة ألتي تبذل لإزالة الإيمان والإسلام من الوجود سوف تبوء بالفشل والخيبة.

(ب) وجود الكفر :

لما سجد الملائكة كلّهم لآدم ﵇. إمتثالاً لأمر الله أبى إبليس أن يكون مع الساجدين، فصار بِهذا الإِباء والاستكبار كافراً عدو الله، ولكنّه سأل الله أن يمهله إلى قيام الساعة. فأعطاه الله ما سأله، فقال عندئذ: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر : ٣٩-٤٠].

وقال تعالى: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ [النساء: ١١٨].

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقد وقع ما ظنّه إبليس. فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يـس : ٦٢].

وليس للمؤمن إذاً أن يستغرب وجود "الكفار" وغلبتهم الظاهرة في بعض الأجيال. فهذه "سنة" تجري بمشيئة الله وعلمه، وإنّما عليه أن يتلقّى من الله الموقف الذي يقفه منهم، وطريقة تعامله معهم .

وقد أخبرنا الله أنّه قادرٌ على الإنتصار عليهم، ولكنّه يريد أن يَختبر إيمان الذين قالوا "آمنّا". ففرض عليهم دخول المعركة لملاقاة جحافل الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد :٤].

وقال تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦].

(ج) تعاقب الإسلام والجاهلية :

إنّ عمل الشيطان هو إضلال الناس عن صراط الله المستقيم تدريجيا، فهو في حياة الأنبياء ونزول الوحى، أضعف ما يكون. ولا يجد ألى قلوب المؤمنين سبيلا. ويعجز عن تزيين الكفر والشرك والعصيان لهم، فيكون مغلوبا في هذه الفترة.

ويكون أولياؤه كذلك مغلوبين في ميادين المعركة،غير قادرين على كسر جيوش الإيمان. ولكنه كلّما طال الأمد عليهم، بعد غيبة الأنبياء وقلّة العلماء، استطاع أن يستميل بعضهم ويخرجهم عن الصراط، أولاً بالمعاصي والفواحش. ثم باستحلال المعاصي واستحلال مخالفة الكتاب، ثم يزدادون مع مرور الزمن حتى تكون لهم الغلبة الظاهرة والكلمة النافذة، فيكون أهل الإيمان مغلوبين على أمرهم، ويكونون قلّة تحت سلطان الكفر والجاهلية. وكان الله الرحيم يُرسل رسله بعد ذلك ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور. فيستجيب لدعوتهم الناس فيقوي جانب الإيمان، فتكون الكرّة للمؤمنين على أعدائهم،فيتضاءل الشيطان وتقلّ جنوده. إن لم يكونوا مهلكين بعذاب من الله استأصلهم. وهذا التعاقب بين الإسلام والجاهلية "سنة" لا تتخلف. ولا تكون حياة أي مجتمع بشريّ خارجة عن احدى هاتين الحالتين.

لقد سارت الحياة البشرية في طريقها بعد آدم عليه السلام مهتدية عدّة قرون لا يعلمها إلاّ الله، ثم وقع الانتكاس والوقوع في الكفر والشرك والجاهلية، فارسل الله نوحاً عليه السلام، يدعوهم إلى العودة إلى الإسلام الأول الّذي كان قبل هذه الجاهلية.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾**﴾ [سورة العنكبوت: ١٤].

فانتهي أمر الجاهلية واستخلف الله المؤمنين في الأرض بعد أن أنجاهم من الطوفان ﴿**فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٥﴾**﴾ [العنكبوت :١٥].

وبعد ذلك كثُر المؤمنون، وعمروا الأرض، وأصبحوا أُمماً وقبائل، ثم وقعوا في الجاهلية والخروج عن صراط الله مرّة أخرى. ولم يقصص الله تعالى علينا كل أخبار الأمم، وكّل الرّسل، لأنّ قصصهم مع أقوامهم متشابِهة.فقصّ علينا طرفاً من ذلك. وسكت عن الآخرين. أخبرنا الله أنّه أرسل هوداً إلى عادٍ فكفرو به وبما جاء به من عند الله. فأرسل عليهم ريحاً أهلكتهم، ونَجّى هوداً والمؤمنين، وجعلهم خلفاء الأرض.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨﴾ [هود : ٥٨].

وأخبرنا الله أيضاً أنه أرسل صالحاً إلى ثمود، فكفروا به وبما جاء به من الحق. وأنّه أهلكهم بصيحة، ونَجَّى المؤمنين مع نبيهم صالح، وجعلهم خلفاء الأرض.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٦٧﴾ [هود:٦٦-٦٧].

و أخبرنا أيضاً قصة شعيب ولوط وموسى وغيرهم -عليهم السلام- الّذين كُذِّبُوْا فاهلك الله أعداءهم الكفرة بعذاب استأصلهم .

ثم أرسل الله تعالى رسوله الأخير محمدا ﷺ فكُذِّب كما كُذِّب الّذين من قبله من الرسل. فنصره الله على أعدائه، فهزمهم في المعارك، حتى دخلوا في الإسلام طائعين وكارهين. ثم أسلمت العرب والعجم، وانتشر الإسلام إنتشاراً واسعاً. وساد المسلمون الأرض، وأصبحت جنود إبليس ذليلة مغلوبة، ولكن النبي ﷺ أخبر أن سنة الله هذه في تعاقب الإسلام والجاهلية ستكون جارية في طريقها، وأنه سيخرج من هذه الأمة متنبئون ومرتدون. وستدرس معالم الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدري ما صلاة ولا صيام ولا نسك، ولكن لا تزال طائفة من أمته ظاهرين على الحقّ حتى تقوم الساعة.

وفي الحديث: «إن الله زوى لي الأرض فأُريتُ مشارق الأرض ومغاربها، وأنّ ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وأعطيتُ الكنْزين الأحمر والأبيض، وإنِّي سألتُ ربِّي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال لي: يا محمد إنِّى إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يردّ، وإنِّي أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنةٍ عامةٍ ولا أسلّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وحتى يكون بعضهم يسبى بعضا، وإنّما أخاف على أمتي الأئمة المضلِّين. وإذا

وُضِعَ السيفُ في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان. وأنه سيكون في أُمتي كذَّابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نَبِيٌّ وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي. ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى» [ابو داود، ومسلم].

وفي الحديث: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة». "وذو الخلصة طاغية دوس ألتي كانوا يعبدون في الجاهلية" [متفق عليه].

(د) الخديعة الكبرى :

إن الشيطان عالم فاسد، وعدوٌّ ماكرٌ خبيثٌ، فلم يكن يقول للأمم الكثيرة ألتي أضلّها: "تعالوا أكفروا بالله. واكفروا بنبيكم. وتبرءوا من الإسلام"، لم يكن يقول لهم ذلك. لأنّه يعلم أنّه طريق صَعْبٌ مكشوفٌ. لا يقبله الناس.

ويعلم كذلك أن البشرية يصعَبُ عليها أن تتبرأ من طريقة أسلافها وأجدادها، لا سيّما إذا كان أولئك الأجداد أنبياء تلقَّوا الوحي من الله. وتركوا العلم والحكمة بين الناس يتوارثها الأبناءُ عن الأباءِ.

وإنَّما كان يبتدع لهم البدعة ويقول لهم: هذه حسنة، ولا يحرمها الإسلام، ولها منفعة عظيمة.وما إلى ذلك من القول.ثم إن البدعة كانت تؤول بِهم إلى الشرك.

كما قال ابن عباس رضي الله عنهما. وهو يتحدّث عن ضلال قوم نوح عليه السلام وكيف عبدوا وَدًّا وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً: قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم ففعلوا و لم تُعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عبدت" [البخاري].

فمن المعروف أنّ هؤلاء الذين عبدوا الأنصاب والتماثيل لم يكونوا يقولون: "نحن كفرنا بالله. وكفرنا بنبينا. وتبرأّنا من الإسلام"، وإنّما كانوا كما قال الله تعالى عنهم وعن أمثالهم: ﴿**إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٠**﴾ [الأعراف: ٣٠].

فقد أصبحوا أولياء الشياطين، وهم يزعمون أنّهم حزب الله وأولياؤه المتقون. وأصبحوا كافرين وهم يظنّون أنّهم مؤمنون، وأصبحوا خارجين عن التوحيد الذي كان أهمّ تعاليم الأنبياء وهم ينتسبون إلى الأنبياء .

وقد أخبرنا الله تعالى أن شعيبا عليه السلام قال لقومه: ﴿**وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩**﴾ [هود : ٨٩].

فيبدوا من السّياق أنّهم كانوا معترفين بنبوة نوح وهود وصالح ولوط، ومعترفين كذلك أنّ أقوامهم كانوا كفاراً. ولكنّهم كانوا مع ذلك واقعين تحت تأثير خديعة الشيطان الكبرى، كانوا يظنّون أنّهم "مؤمنون" وهم ينكرون التوحيد، ويظنّون أنّهم موافقون لطريقة رسل الله، وهم يكفرون بشعيب عليه السلام، ويشركون بالله ما لم ينْزل به سلطاناً.

وقد قيل إنّهم كانوا من ذرّية إبراهيم عليه السلام، فكان إنتسابَهم لأنبياء الله إذاً قوياً، مع كونِهم من أظلم الظالمين.

وأخبرنا الله كذلك في القرآن. أنّ قوم فرعون وهم من أعتى الأمم. كانوا يعترفون بنبوة يوسف عليه السلام. فجاء في القرآن أنّ الرجل المؤمن قال لقوم فرعون: ﴿**وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ**﴾ [غافر : ٣٤].

كانوا يعترفون بأن يوسف عليه السلام كان نبياً رسولاً أرسله الله، وكانوا مع ذلك ينكرون رسالته ألتي جاء بتجديدها موسى عليه السلام لانّهم كانوا يحسبون أنّهم مهتدون، فلما تجلّت لهم الحقيقة ورأوا الآيات وعلموا أنَّ موسى على الحقّ عاندوا وكفروا علوا واستكباراً فأخذهم الله بعذاب الاستئصال.

وكذلك اليهود أنكروا الإسلام والتوحيد الّذي جاء به المسيح عليه السلام، وهم يحسبون أنّهم مهتدون وأنّهم على ملّة إبراهيم واسحاق ويعقوب وموسى عليهم السلام، ولم يدروا أنّ عيسى عليه السلام هو على ملّة أولئك الرسل وأنّهم هم الخارجون عن الصراط المستقيم، لأنّهم كانوا واقعين تحت تأثير "الخديعة الكبرى".

وكذلك النّصارى أنكروا دعوة النبي ﷺ ولم يستجيبوا له، وتَمسَّكوا بادّعائهم لعيسى، وتمسكوا بأناجيلهم. ولم يدروا أنّ محمداً ﷺ على ملّة إبراهيم وعيسى عليهما السلام،وأنّهم هم الخارجون عن الصراط المستقيم بتأثير "الخديعة الكبرى".

وها نحن اليوم نرى أنّ هذه السنّة جارية في طريقها، نرى أقواماً ينتسبون للإسلام ويدّعون الإيمان بنبوة محمد ﷺ ، ولكنهم وقعوا تحت تأثير "الخديعة الكبرى"، خرجوا عن الإسلام

وأنكروا الحكم بكتاب الله، واستهزءوا بالمؤمنين وحاربوهم حرباً عنيفة، وأعلنوا جهرة إيمانهم بالديمقراطية والاشتراكية والقوانين والأديان البشرية، يُعلنون ذلك وهم يزعمون أنّهم يقولون (لا إله إلا الله محمد رسول الله) كما قال أهل الكتاب: "لا إله إلاّ الله موسى رسول الله" أو "عيسى رسول الله" وهم ينكرون رسالة الإسلام الحنيف، ألتي جاء بها محمد ﷺ وهو موافقٌ فيها لموسى وعيسى عليهم السلام.

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه»، قالوا يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» [متفق عليه].

لقد واجه النبي ﷺ ثلاث أُمم كافرة مشركة، منكرةٌ للحنيفية ملّة الأنبياء، وكلّ واحدةٍ من هذه الأمم كانت تزعم أنّها على ملّة إبراهيم عليه السلام الذي أرسله الله بالحنيفية،كما أرسل محمداً ﷺ بها. وهم اليهود والنصارى والمشركون العرب. فأنزل الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾**﴾ [آل عمران: ٦٧].

وموقف النبي ﷺ المعروف من هذه الأمم. وهذا البيان القرآني والفصل الربّاني يدلّ على أنّ المؤمن الذي يعرف الفرق الّذي بين الحنيفية وبين الشرك بالله. ليس له أن ينخدع بِما يدّعية أهل الشرك والضلال من الإستقامة على الإسلام، وهم ينكرون التوحيد والدعوة إلى الحنيفية. إن المؤمن إذا أبتلي بأقوام ينتسبون إلى ملّة الأنبياء وهم يكفرون بأهمّ ما تضمنته رسالات الأنبياء، عليه أن يقتدي بِهدي الأنبياء ومواقفهم من أمثال أولئك المنخدعين بخديعة إبليس اللّعين. أما من كان لا يعرف الفرق الذي بين الحنيفية وبين الشرك بالله، فلا عجب فيه إذا جَمع بين الضدّين وإنخدع بالدعاوي والأكاذيب، فإن الله تعالى إنّما فصّل آياته لقوم يعلمون.

قال تعالى: ﴿**وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾**﴾ [التوبة : ١١].

(هـ) بروز الشياطين :

ومن السنن الثابتة. أن يقف القادة والرّؤساء الذين يملكون السّلطة، وإصدار الأوامر والنواهي للأمم الضالة في وجه دعاة الحقّ، وأن يهددوهم بالقتل، أو النفي، أو السّجن، إذا لم يتنازلوا عن دعوتِهم، ويندمجوا في أقوامهم، كما كانوا من قبل هذه الدعوة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الانعام:١١٢-١١٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان : ٣٠-٣١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الانعام: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤-٣٥].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء : ١١٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾﴾ [الصافات: ٩٧].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء : ٢٩].

وأولئك الأكابر من المجرمين يعرفون كيف يصرفون "العامة" عن الاستماع إلى الحقّ وكيف يفسدون القلوب، يقولون لَهم "إنَّ هذه الدّعوة يُراد من ورائها الإستيلاء على السلطة. وقلب نظام الحكم" كما تُوضِّحُهُ الآيات الآتية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ [الاعراف : ١٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ [ص: ٦].

إن الأنسان الجاهل الخالي من الإيمان ضعيف النّظر، وعلمه لا يتجاوز حدود هذه الدنيا، ولا يعرف قيمة أعلى من المكاسب الدنيوية تستحقّ أن تُبْذَلَ الجهود والأوقات في سبيلها، ولا

يعرف مقاماً أرفع وأكرم من الإستيلاء على الملك، والسيطرة على أرواح الناس وأبدانِهم وأموالهم. ويرى أنّ من بلغ هذا المنصب بلغ النعيم والسرور، لقد حجبه الشيطان عن رؤية حقيقة الدنيا وقصر عمرها، وزوالها من قريب. وحجبه كذلك عن رؤية الجنّة ونعيمها الخالد، وكرامة أهلها الذين لا يَموتون، ولا يهرمون، ولا يسقمون، ولا ييتئسون.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧].

لعلمهم القليل ونظرتِهم الضيّقة كان أهل الجاهلية يصدّقون ما يُقال عن رسل الله موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم من أنّهم إنّما يريدون الملك لينالوا الراحة والمتاع. وكلّ من عزم السير في طريق أولئك الرّسل لا بدّ له من أن يُقال له شيء مما قد قيل للرّسل الكرام، لأن سنّة الله لا تتخلّف .

(و) ثبات المؤمنين :

ومن سنة الله أن يثبت أهل الإيمان، وأن يثقوا بوعد الله، وأن لا يَخشوا التهديد بالقتل، أو النفي، أو الحبس. وأن يستمرّوا في دعوة الضالّين إلى الهدى غير مبالين بوعيد أكابر المجرمين. وقد قصّ الله علينا في كتابه من مواقف المؤمنين ما هو أُسوةٌ للمؤمنين على مدار التاريخ. ومن ذلك.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾ [يونس : ٧١].

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود:٥٣-٥٦].

وقال تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ۝٧٠ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ

ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٠-٧٣].

وقال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الاعراف :١٢٥-١٢٦].

عن خباب بن الأرت ﷺ قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّد بردة في ظلّ الكعبة. فقلنا: ألا تستنصر لنا. ألا تدعوا لنا. فقال: قد كان من قبلكم يُؤخد الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين. ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه. والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون» [البخارى].

وكان رسول الله ﷺ يرى عماراً وأمّه وأباه يعذبون العذاب الشديد في مكة. فما يزيد علي أن يقول: صبرا آل ياسر إنَّ موعدكم الجنّة.

(ز) إهلاك المكذبين :

وعندما يبلغ طغيان المجرمين وكراهيتهم للحق منتهاه، ويبلغ ثبات المؤمنين وإصرارهم على الحقّ منتهاه، عندئذ تأتي سنة الله في إهلاك المجرمين وإنجاء المؤمنين.

قال تعالى: ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم : ١١-١٤].

وقال تعالى: ﴿۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ

إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف : ٨٨-٩١].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

(ح) الإبتلاء :

من سنة الله، أن يبتلي المؤمنين، وأن يمحّص صفوفهم، وأن يظهر المنافقين والكاذبين في زعمهم للايمان، رَحْمةً لعباده المؤمنين، كي لاينخدعوا بِهم. فالإبتلاء وإن كان صَعْباً على النفوس يُعتبر رحمة ونعمةً من نعم الله على عباده المؤمنين، ولولاه لامتلأت صفوفهم بالمنافقين وطلاّب الدنيا. وربُّما بلغوا مراكز القيادة والتوجيه، دون أن يشك فيهم أحد لأنّهم يتكلمون بكلام المؤمنين ويعملون ما يشبه أعمالهم. فجعل الله الإبتلاء ميزاناً ومقياساً لا يخطئ. يضع كل فرد موضعه الحقيقيّ، فيعلم المؤمنون من يثقون بِهم ومن لا يثقون بِهم، من يتعاونون معهم ومن يحترزون منهم.

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:١-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت:١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

فظهر من الآيات أنّ الغرض الذي لأجله أبتلى الله المؤمنين هو تمحيص صفهم، وإخراج الضعفاء والمنافقين من بينهم. والله تعالى بيَّن أنه يبتلي أولياءه المؤمنين بأنواع من الشدائد، كالخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس. وملاقاة أذى الألسنه والأيدى من المشركين.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة : ١٥٦- ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران : ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة : ٢١٤].

وبينّ الله كذلك أن بسط النعمة والسلامة والأمن من الابتلاء

قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الانبياء:٣٥].

إن من طبيعة الإنسان الذي لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه. أن يظهر منه الفرح والفخر والبخل إذا أسبغ الله عليه من نعمه. وأن يظهر منه الهلع والجزع واليأس عند المكارة والشدائد. وهذه من صفات الكفار، وقد نفاها الله عن المؤمنين المصلّين.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج : ١٩-٢٢].

ولكن إذا نزل الإبتلاء بالشرّ يظهر من المصلّين من يجزع وييأس من روح الله ورُبَّما خرج عن الإسلام جملة. وكذلك إذا نزل الإبتلاء بالخير. يظهر منهم من يمنع ويبخل ويفرح بخضرة الدنيا

الفانية، وربُما تنكّر لاخوانه في الله. ومن إدّعى الإيمان واتّصف بصفات الكفار فهو لا يكون إلا منافقاً خالصاً أو من ضعفاء الإيمان. والغرض من الإبتلاء يكون عندئذٍ قد تحقّق بمعرفة المؤمنين لأولئك المنافقين والضعفاء المنخرطين في صفوفهم.

وقد قال ﷺ عن المؤمن: «عجبا لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيراً له» [مسلم].

والجماعة التي يريد الله لها الخير والكرامة، يبتليها إبتلاءً شديداً يُزلزلها، وينفي عنها الخبث، أهل النفاق ومرضى القلوب.

وقد جاء في الأحاديث: «أشدّ النّاس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل. فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابةً زِيْدَ في بلائه، وإن كان في دينه رقّة خفّف عنه. وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة» [الترمذي، ابن ماجه، أحْمد].

وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحبّ قوماً إبتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» [الترمذى].

وعندما يشتدّ البلاء وتطول مدّته ويبطئ النصر. يتحقّق ما أراده الله من إبتلائه لعباده. ويظهر كل فردٍ على حقيقته، ودرجته من الإيمان. وينقسم الأفراد الّذين كانوا يمثّلون جماعةً واحدة قبل الابتلاء والتمحيص إلى الأقسام الآتية :

(الأول) المؤمنون الخلص

وهم الذين أخلصوا النيّة وصدقوا في العمل. و لم يتردّدوا في بذل النفس والمال في سبيل الله. وهم الذين ازدادوا بالإبتلاءات إيْماناً. وخرجوا من كل إبتلاء ناجحين، لم يزدهم إلا إيماناً وتسليماً. وأولئك هم القاعدة الصلبة للجماعة، والعنصر الذي يقوم عليه كيانَها. ومثال ذلك المهاجرون والانصار، أصحاب بيعة العقبة، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، إنّهم لم ينهزموا أمام الأحزاب: فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الاحزاب: ٢٢-٢٣].

وهم الذين قال الله عنهم لما بايعوا تحت الشجرة: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح : ١٨].

وقال عنهم يوم حنين وجهادهم فيه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة : ٢٥-٢٦].

وقال تعالى عنهم في غزوة العسرة (تبوك): ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠].

(الثاني) ضعفاء من غير نفاق خالص

الإيمانُ ينمو ويقوِّي في النفوس تدريجياً، حتى يكون قوياً مكتملاً راسخاً. لا تعوّقه الشبهات والشهوات المضلّة. فإن اجتهد المسلم في التدبّر والتفكير في آيات الله. وداوم على قراءة القرآن، وكثرة العبادات والذكر، ولازم أهل الصلاح والعلم، فإنّ إيمانه يكون في ازدياد ونموّ مستمرّ، وإن غفل ولها واشتغل عن القرآن والذكر، وصاحب أهل الغفلة والنفاق، فإن إيمانه ينقص تدريجياً، وربَّما تحوّل إلى منافق خالص، أو إلى مرتدٍ كافرٍ.

وجاء في حديث عن النبي ﷺ: «والقلوب أربعةٌ، قلبٌ أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط بغلافه، وقلبٌ منكوس، وقلبٌ مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، فسراجه فيه نور. وأما القلب الأغلف فقلب الكافر. وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف الحقّ ثم أنكر. وأما القلب المصفح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيّب، ومثل النفاق كمثل القرحة يمدّها القيح والدمّ، فأيّ المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه» [أحمد].

فمن الطبيعي إذاً أن يكون في الجماعة ضعفاء متفاوتون في الضعف. ولكنّ هذا الضعف كما يبدوا من الحديث مرحلةٌ يَمرّ القلب البشري بِها. ولا بدّ أن يتجاوزها إلى أعلى، ويكون مؤمناً خالصاً كأهل القسم الأول، أو يتجاوزها إلى أسفل فيكون منافقاً خالصاً.

وتجد في القرآن والسنة والسيرة صوراً من الضعف البشري الذي مرّ به أفراد كانوا جادّين في إيمانِهم، وكان الله تعالى يدعوهم إلى الأفضل والأكمل كي ينالوا رضى الله والجنة. وفي الغالب لا يخلوا الإنسان من هذا الضعف في بداية إِسلامه، وكذلك إذا وُلد ونشأ في الإسلام، والطريق هو الإهتمام بتربيتهم ومتابعة أحوالهم والتعقيب على ما يحدث منهم مما لا يقبله الإسلام.

ومما سجله القرآن من حالات الضعف مأ ياتي: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال : ٥-٦].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ۝١٥٥﴾ [آل عمران : ١٥٥].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۝٢٦٨﴾ [البقرة :٢٦٧-٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ۝١٥﴾ [النور : ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ [الجمعة: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ۝١٠٢﴾ [التوبة: ١٠٢].

وهذه الحالات من الضعف البشريّ كانت تظهر من واقع الجماعة المسلمة الأولى، وكانت أحوال الناس دائماً في تَحسُّن مستمرّ بفضل الجهود التي كانت تُبذل في التربية، ولكن كان

هناك مسلمون جُدد ينضمون إلى الجماعة. ويحتاجون إلى مزيد من التربية بإستمرار، فلم تكن الجماعة الإسلامية في مستوى واحد دائماً بسبب ذلك. وكان إبتلاء الله المستمرّ المتنوع يعمل عمله في داخل الجماعة، فيرفع أقواماً ويضع آخرين.

(الثالث) المنافقون

وكانوا أقواماً تكلّموا بالإسلام، ودخلوا في عداد المسلمين وهم ليسوا في الحقيقة منهم، وإنما كانوا يرعون مصالحهم الدنيوية ومراكزهم الاجتماعية. وكانوا ينتظرون أن تدور الدائرة يوماً على المسلمين، كي يتحرّروا من تكاليف الإسلام. وقد أنزل الله سوراً وآيات كثيرة بشأنِهم، فعرّف المؤمنين سماتَهم وما يتميّزون به عن المؤمنين الصادقين من صفات وأعمال.

والمنافقون كانوا على نوعين :

(النوع الأول): وهم قوم آمنوا بالله ورسوله حقيقة، وقد دخل الإيمان في قلوبهم، ولكن لما اِبتلاهم الله بالخوف والحروب والجوع ونقص الانفس والثمرات، ارتدّت قلوبهم ونافقوا وكانوا كما قال تعالى عنهم: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨**﴾ [البقرة: ١٧- ١٨].

وقال تعالى: ﴿**لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ**﴾ [التوبة: ٦٦].

كانوا مرتدين قد ارتدّت قلوبِهم وكفروا بعد إيمانِهم. ولكنّهم لم يغيِّروا شيئاً من ظاهرهم، فظلّوا معدودين من المسلمين، وإن كان يظهر للمؤمنين عند الشدائد والمِحن منهم شيء كثير يدلّ على نفاقهم .

(النوع الثاني): وهم قوم أضطرّوا إلى إظهار الإسلام وهم غير مقتنعين به. رعاية للمصالح والمراكز التي كانت لهم في العشيرة والقبيلة، كما كان حال عبدالله بن أبيّ الذي أعلن إسلامه بعد وقعة بدر وقال: (هذا أمرٌ قد توجّه). وكان يضمر الكيد والشرّ للنبي ﷺ ، ولكنّ الله تعالى ردّ كيده في نحره وأصبح هو وأمثاله أذلاّء في الإسلام.

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يجاهد المنافقين بالحجج والبيان:

قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٣**﴾ [التوبة:٧٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء : ٦٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١].

وكان منهم من يوفّقه الله للتوبة ويتبرّأ من النفاق ويخلص عمله لله.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: ١٤٦].

(الرابع): المرتدون

إن الإيمان منحة إلهيةٌ، والله هو الّذي يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم، وهو القادر على أن يسلب الإيمان من القلوب .

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء: ٨٦-٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

إن المؤمن العارف بالله يخشى أن يرتدّ قلبه بسبب ذنوبه كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور : ٦٣].

قال ابن كثير: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة.

وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الانفال: ٢٤].

وكان رسول الله ﷺ وهو أعلم المؤمنين بالله وأتقاهم له يقول في دعائه: «اللّهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»

ولما سُئِلَ. قال: «إنَّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله، إن شاء قلبه وإن شاء ثبّته» [الترمذي ومسلم].

وقال نبي الله إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم : ٣٥].

قال إبراهيم التيمي: "من يأمن البلاء بعد إبراهيم " [ابن جرير].

وقد قيل إن المنسلخ عن آيات الله المذكور في آية الأعراف كان رجلاً من أصحاب موسى، عالماً ثم كفر بعد إيمانه.

وفي حياة النبي ﷺ كان هناك من إرتدّ عن الإسلام ممن أسلم كما دلّت عليه الأخبار الآتية:

عن أنس رضي الله عنه قال: "كان رجل نصرانياً فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران، فكان يكتب للنبى ﷺ ، فعاد نصرانياً. فكان يقول: "ما يدري محمّدٌ إلاّ ما كتبت له". فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظتْهُ الأرضُ، فقالوا: هذا فِعْلُ محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا. فأصبح وقد لفظتْهُ الأرضُ. فقالوا: هذا فِعْل محمد وأصحابه نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم فألقوه خارج القبر. فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظتْهُ الأرضُ فعلموا أنّه ليس من الناس فألقوه" [متفق عليه].

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: "كان رجلٌ من الأنصار أسلم ثم إرتدّ ولحق بالمشركين، ثم نَدِمَ فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ فنَزلت ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ إلى قوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾، فأرسل إليه قومه فأسلم" [النسائى وابن جرير].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾

قال الإمام الطبريّ: ونزلت هذه الآية في الخائنين الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾، لما أبى التوبة من أبى منهم، وهو (طُعْمَةَ بن الأُبَيْرق) ولَحِقَ بالمشركين من عبدة الأوثان بمكّة، مرتدّا مفارقاً لرسول الله ﷺ ودينه. [جامع البيان: م ٤ /٢٧٨].

وجاء في سيرة (ابن هشام): "وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة ومعه امراته (أمّ حبيبة بنت أبي سفيان) مسلمة، فلما قدمها تنصَّر وفارق الإسلام ومات نصرانياً". كان عبيد الله بن جحش –حين تنصَّر– يَمُرُّ بأصحاب رسول الله ﷺ وهم هناك من أرض الحبشة فيقول: "فقحنا وصأصأتُم"، أي: أبصرنا،

وأنتم تلتمسون البصر، و لم تبصروا بعد. وخلف رسولُ الله ﷺ بعده على امرأته (أُم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب).

وعن أنس رضي الله عنه: "أنّ رسول الله ﷺ دخل مكّة عام الفتح وعلى رأسه المغفر. فلمّا نزعه جاءه رجلٌ فقال: "اِبن خطل" متعلِّق بأستار الكعبة، فقال: «أقتلوه». [متفق عليه].

قال الحافظ اِبن حجر في "فتح الباري": هو عبدالله بن خطل، وإنما أمر ﷺ بقتل إبن خطل، لأنه كان مسلماً، فبعثه رسول الله ﷺ مصدّقاً، وبعث معه رجلاً من الأنصار، وكان معه مولى يخدمه، وكان مسلماً، فنزل منْزلاً، فأمر المولى أن يذبح تيساً ويصنع طعاماً، فنام واستيقظ و لم يصنع له شيئًا، فعدا عليه فقتله، ثمّ إرتدّ مشركاً، وكانت له قينتان تغنيان بِهجاء رسول الله ﷺ.

ولما توفي رسول الله ﷺ وقعت الردّة المشهورة، حيث إرتد عن الإسلام غالب من أسلم من قبائل العرب، وكانت ردّتُهم متنوعة، فمنهم من إرتدّ إلى عبادة الأوثان والأصنام، ومنهم من إعتقد نبوة الكذّابين المتنبئين، كمسيلمة، وطليحة، والأسود العنسي، -وقد قُتل في حياة النبي ﷺ - وسجاح.

ومنهم من امتنع عن أدّاء الزكاة، وأقرّ بالتوحيد والصلاة. وقد قضى الصحابة رضوان الله عليهم على هذه الفتنة المستطيرة في مدى سنة واحدة في الحروب المعروفة بحروب المرتدين.

(ط) الاستبدال :

ومن سنة الله أن يقع الاستبدال، ومعنى ذلك أنّ من اِرتدّ أو نافق لا يضّر الإسلام، وأنّ الله يستبدل به من هو أفضل منه إيماناً وأسرع إلى الخيرات، وكذلك "الجماعة" إذا ارتدّت أو نافقت أو ضَعُفتْ عن الإستقامة، فإن الله تعالى سيأتي بقومٍ لا يرتدُّون ولا ينافقون ولا يضعفون عن الإستقامة.

قال تعالى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤**﴾ [المائدة : ٥٤].

وقال تعالى: ﴿**إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩**﴾ [التوبة: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد : ٣٨].

وقال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾ [التحريم:٥].

(ي) التفسير الإسلامي للتاريخ :

ومن السّنن الثابتة التي تعمل في حياة الجماعات، والتي هي وراء قيام الدول وقوتِها وضعفها وإنْهيارها ما بيَّنها الله تعالى في كتابه. فأخبر :

(أ) إنّ الأمة إذا أعطاها الله قوّة وعدّدا ومكّنها في الأرض. فإنه يريد أن تعمل بعهد الله وميثاقه. وهي تعلم أنّها مستخلفة في الأرض، وليست هي مالكة الملك. فلا يحلّ لها إذاً أن تشرع الشرائع ألتي لم يأذن الله بها من عند نفسها.

(ب) إنّها إن فعلتْ ذلك، وخضعتْ لأمر الله، واستقامتْ على موافقة أمره. فإنَّ الله لا يقطع منها نِعَمَهُ بل يزيدها ويضاعفها لها ما دامت على ذلك.

(ج) وإن لم تفعل ذلك وحكمتْ بهواها، وطغت وأفسدت في الأرض. فإن الله سينتقم منها في الدنيا قبل الآخرة، ويسلّط عليها من يشاء من عباده، فيكونون سبباً لإنْهيارها، أو ينْزل عليها عذاباً من عنده يستأصلها.

وإليك الآيات الدالّة على ذلك:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [يونس: ١٤].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ:١٥-١٧].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾ [النحل: ١١٢-١١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الاعراف:٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: ٦].

قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وإذا بلغت الدعوة الإسلامية أمة ولم تستجب لها، فإن الله يأخذها بِالْمِحَنِ والشدائد كي تتوب إلى الله. فإن تابت كان خيراً لها، وإن ثبتت على كفرها مع الشدائد والمحن. فإن الله سيفتح لها أبواب الخيرات، حتى إذا إسترسلت وفرِحَتْ بالنعماء أخذها بغتة فإذا هم مبلسون .

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٣-٤٤].

ومعرفة سنة الله هذا تمنع من الإغترار بما يظهر من الدول الكافرة من الترف وأنواع الخيرات. وهم مصرّون على ضلالهم وكفرهم. كما جاء في الحديث: «إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم» ثم تلا ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾». [أحـــمد].



(٧) زاد الطريق

إن هذا الطريق الذي شرعه الله للمؤمنين أن يسلكوه طريق يحتاج إلى بذل النفس والمال طريق محفوف بالأخطار والأعداء، ولا مفرّ لسالكه من ملاقاة المحن والشدائد. إنَّ هذا الطريق أوجب الله سلوكه لابتلاء المؤمنين، واختبار إيمانِهم بألوهية الله وعبودية البشر، واختبار إيمانِهم بالبعث والجزاء. وكأنَّ الله يقول لهم: "إذا اعتقدتم أنِّي إلهكم وأنتم عبادي، وأنِّي وهبتُ لكم الأنفس والأموال. واعتقدتم كذلك أنِّي قادرٌ على البعث والجزاء. إذا اعتقدتم كلّ ذلك فابذلوا الأنفس والأموال في سبيلي، ولا تبخلوا بشيء من ذلك، واسلكوا هذا الطريق الذي فيه ذهاب النفس والمال. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

والله تعالى يعلم مراتب الناس في الاستجابة لندائه، يعلم المعرضين عن أمره الذين ألهتهم الحياة الدنيا، ولم يبق لهم وقت يتعرّفون به الطريق الذين ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩].

ويعلم المتردِّدين المنافقين، الذين يشكُّون في أن سعادتهم في سلوك هذا الطريق على مشقّته في الظاهر ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٥].

ويعلم الله المؤمنين الصادقين الذين لا يبخلون بأنفسهم وأموالهم ويبذلونَها في سبيله رجاء الجنة والمغفرة بإذنه، والذين لا يشكُّون في أنّ سعادتهم في الدنيا والآخرة في اتّباع أمر الله. الذين يقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣].

ويقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧].

إن الله تعالى يعين أولئك المؤمنين الصادقين الذين يستعينون به في وظيفة العبادة، فيُعطيهم الزاد الذي يكفيهم في رحلتهم، ويرشدهم إلى المصدر الذي يجدون عنده دائما العون والمدد. ومن العبادات التي جعلها الله زاداً للمؤمنين وأمرهم بالحرص عليها والاستزادة منها ما يأتي :

التقوى :

قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ٤﴾ [الطلاق: ٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة: ١٢٣].

الصبر :

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال ﷺ: «والصبر ضياء» [مسلم].

وقال أيضاً: «وما أعطي أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر» [متفق عليه].

الدعاء :

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧-١٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٢٥-٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: ٢٤-٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

ومن الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به منِّي، اللهم اغفر لي هزلي وجدّي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي» [متفق عليه].

وأنه قال ﷺ: «اللهم أنت ربِّي لا إله إلاّ أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، فغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت» [البخاري].

وكان يقول عند الكرب والخوف: «لا إله إلاّ الله العظيم الحليم، لا إله إلاّ الله رب العرش العظيم، لا إله إلاّ الله رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم» [متفق عليه].

وأنه قال ﷺ: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه لا إله إلاّ أنت» [أبو داود/أحـــمد].

وقال ﷺ: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم» [أبو داود].

وقال ﷺ: «اللهم أنت عضدي وأنت نصيري بك أجول وبك أصول وبك أُقاتل» [أبو داود/الترمذي]. «حسبنا الله ونعم الوكيل» [البخاري].

الصلاة :

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة: ٤٥].

وفي الحديث: «وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة» [أحـــمد].

وفي الحديث: «وكانوا إذا فزعوا فزعوا إلى الصلاة» [أحـــمد].

ومن رحمة الله لعباده أن جعل الصلاة ركناً من أركان الإسلام، ولا يصحّ إسلام المرء إلاّ بِها .

قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١].

وفي الحديث: «إنَّ بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» [مسلم].

وهي أعظم الفرائض بعد التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البيّنة: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧١-٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤].

وتنقسم الصلاة إلى فرائض ونوافل، ويجب أن تصلّى الفرائض في الجماعة ويؤخذ الوجوب من الأدلّة الآتية:

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البقرة:٤٣-٤٤].

فقول الله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ أفاد الوجوب، أي وجوب الصلاة في الجماعة عند المقدرة.

وكذلك أمر الله النبي ﷺ أن يصلّي بالمسلمين جَماعة مع وجود الخوف من العدوّ، فكيف يجوز ترك الصلاة في الجماعة مع وجود الأمن من الأعداء.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ﴾ [النساء: ١٠٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلموا ما فيهما لأتوهما ولو حبواً» [].

وقال رسول الله ﷺ: «ولقد هممتُ أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلاً فيصلّي بالناس، ثم أنطلق في رجالٍ معهم حزم من حطبٍ إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرِّقَ عليهم بيوتهم بالنار» [متفق عليه].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يَجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلاّ قليلاً» [مسلم].

والصلاة لها شروط لا تصحُّ إلاّ باستكمالها، وهي :

(١) **الإسلام:** لأن عمل المشرك والكافر مردود.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِي ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٧﴾ [التوبة: ٢٧].

(٢) **العقل:** فالمجنون لا تكليف عليه حتى يبرأ .

وفي الحديث: «رفع القلم من ثلاثة النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق، والصغير حتى يبلغ» [أبو داود/النسائي].

(٣) **الطهارة من الحدث:** لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ [المائدة: ٧].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ﴾ [النساء: ٤٣].

(٤) **إزالة النجاسة:** وتزال من البدن والثوب والمكان .

قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ [المدثر: ٤].

وفي الحديث: «تنزّهوا من البول فإن عامة عذاب القبر منه».

وفي الحديث: "جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: أرأيت إحدانا تحيض في الثوب كيف تصنع"؟ قال: «تحتُّه ثم تقرصه بالماء، وتنضحه وتصلِّي فيه» [متفق عليه].

وفي الحديث: «جاء أعرابيٌّ فبال في طائفة المسجد، فزجره الناس فنهاهم النبي ﷺ فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه» [متفق عليه].

ستر العورة : قال تعالى: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

وفي الحديث: «غطّ فخذيك فإن الفخذ عورة» [أبو داود].

وفي الحديث: «لا يصلِّ أحدكم في الثوب الواحد ليس على عاتقه منه شيء» [متفق عليه].

وفي الحديث: «لا يقبل الله صلاة حائض إلاّ بخمار» [أبو داود/الترمذي].

وفي الحديث: «أن أم سلمة رضي الله عنها سألت النبي ﷺ: أتصلِّي المرأة في درع وخمار بغير إزار؟ قال:إذا كان الدرع سابغاً، يغطِّي ظهور قدميها» [أبو داود].

وقالت عائشة: "لا بدّ للمرأة من ثلاثة أثواب تصلِّي فيها: درعٌ وجلبابٌ وخـــمارٌ".

(٥) **دخول الوقت :** لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا ١٠٣﴾ [النساء: ١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا ٧٨﴾ [الإسراء: ٧٨].

وفي الحديث: سألتُ النبي ﷺ أي الأعمال أحبُّ إلى الله ﷻ. قال: «الصلاة على وقتها». [].

وفي الحديث: أن جبريل عليه السلام أمَّ النبي ﷺ في أول الوقت وفي آخره، فقال: "يا محمّد الصلاة بين هذين الوقتين" [أحمد/النسائي/الترمذي].

(٦) **استقبال القبلة:** لقوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ**﴾ [البقرة: ١٤٤].

وفي الحديث: صلَّينا مع النبي ﷺ ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً نحو بيت المقدس ثم صُرفنا نحو الكعبة [مسلم].

وقال تعالى: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا**﴾ [البقرة: ٢٣٩].

قال ابن عمر رضي الله عنهما: "مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها" [البخاري].

(٧) **التمييز** : وحدّه سبع سنين .

للحديث: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشرٍ وفرِّقوا بينهم في المضاجع» [أحمد/أبو داود].

(٨) **النية** : ومحلُّها القلب و لم يسنّ التلفظ بِها .

وفي الحديث: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» [متفق عليه].

والصلاة لها كيفية خاصة تُؤْخَذُ من أفعال النبي ﷺ وأقواله التي منها ما يأتي:

(١) «صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي» [البخاري].

(٢) «إذا قمت إلى الصلاة فكبِّر» [متفق عليه].

(٣) «إذا صلّى أحدكم إلى شيء يستره من الناس وأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه، فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان» [متفق عليه].

(٤) «إذا صلّى أحدكم فليصلِّ إلى السترة وليدن منها» [أبو داود].

(٥) "كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير" [متفق عليه].

(٦) "كان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا بحذو منكبيه ثم يكبِّر" [متفق عليه].

(٧) "رأيتُ النبي ﷺ يضع اليمنى على اليسرى على صدره فوق المفصل" [أحمد/الترمذي].

(٨) «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [متفق عليه].

(٩) وكان يقول في الاستفتاح: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من خطاياي كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد» [متفق عليه].

(١٠) كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير والقراءة بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾.

(١١) "وكان إذا ركع لم يشخص رأسه ولم يصوبه ولكن بين ذلك" [مسلم].

(١٢) "وكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكبِّر حين يقوم، ثم يكبِّر حين يركع، ثم يقول: «سمع الله لمن حَمده» حين يرفع صلبه من الركوع، ثم يقول وهو قائم: «ربّنا ولك الحمد»" [متفق عليه].

(١٣) "كان يقول في ركوعه «سبحان ربّي العظيم»" [أحـمد/مسلم].

(١٤) لما نزلت ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٦٦﴾ قال لنا النبي ﷺ «اجعلوها في ركوعكم» [أحـمد/أبو داود].

(١٥) قال ﷺ: «إنما جُعل الإمام ليؤتَمَّ به، فلا تختلفوا عليه، فإذا كبّر فكبّروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا قال سمع الله لمن حمده فقولوا ربنا لك الحمد، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلَّى جالساً فصلُّوا جلوساً أجمعون» [متفق عليه].

(١٦) وقال ﷺ لتارك الطمآنينة: «ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ». [متفق عليه].

(١٧) "وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع لم يسجد حتى يستوي قائماً" [مسلم].

(١٨) وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى صلاة رجلٍ لا يُقيم صلبه بين ركوعه وسجوده» [أحـمد].

(١٩) "وكان النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى يكونا حذو منكبيه،ثم يكبِّر، فإذا أراد أن يركع رفعهما مثل ذلك، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك، وقال: «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد»" [البخاري/مسلم].

(٢٠) وقال ﷺ: «أُمرتُ أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة -وأشار بيده إلى أنفه- واليدين والركبتين وأطراف القدمين» [متفق عليه].

(٢١) وكان ﷺ يقول في سجوده: «سبحان ربي الأعلى» [متفق عليه].

(٢٢) لما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ قال رسول الله ﷺ «اجعلوها في سجودكم». [أحـمد/أبو داود].

(٢٣) «أما الركوع فعظِّموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم» [مسلم].

(٢٤) «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فاكثروا من الدعاء» [مسلم].

(٢٥) «اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب» [متفق عليه].

(٢٦) "كان إذا صلّى فرج بين يديه حتى يبدو بياض إبطيه" [متفق عليه].

(٢٧) «ثم يكبِّر حتى يهوي ساجداً، ثم يكبِّر حين يرفع رأسه، ثم يكبّر حين يسجد، ثم يكبّر حين يرفع رأسه، ثم يفعل ذلك في صلاته كلّها حتى يقضيها. ويكبّر حين يقوم من الثنتين بعد الجلوس» [متفق عليه].

(٢٨) وكان يقول في الجلسة بين السجدتين: «اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني وارفعني وعافني واهدني وارزقني» [الترمذي/أبو داود/ابن ماجه].

(٢٩) وكان رسول الله ﷺ إذا قال «سمع الله لمن حَمده»، لم يحنِ أحدٌ منّا ظَهره حتى يقع رسول الله ﷺ ساجداً، ثم نقع سجوده بعده. [متفق عليه].

(٣٠) «إذا أمن الإمام فأمنّوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» [متفق عليه].

(٣١) "رمقتُ الصلاة مع محمد ﷺ ، فوجدتُ قيامه فركعته فاعتداله بعد ركوعه فَسَجْدَتُهُ فَجَلْسَتُهُ بين السجدتين فسجدته فجلسته ما بين التسليم والانصراف قريباً من السواء" [متفق عليه].

وفي رواية: "ما خلا القيام والقعود قريباً من السواء". [].

(٣٢) "وكان يفرش رجله اليسرى وينصب اليمنى" [البخاري/مسلم].

(٣٣) وكان إذا قعد للتشهّد وضع يده اليسرى على ركبته اليسرى واليمنى على اليمين وعقد ثلاثاً وخمسين، وأشار بأصبعه السبابة. [].

وفي رواية: وقبض أصابعه كلها وأشار بالتي تلي الإبهام. [].

(٣٤) "وضع كفه اليسرى على فخذه وركبته اليسرى، وجعل حد مرفقه الأيمن على فخذه الأيمن، ثم قبض بين أصابعه فحلق حلقة" [].

وفي رواية: "حلق بالوسطى والإبهام، وأشار بالسبابة، ثم رفع إصبعه. فرأيته يحرِّكها يدعوا بِها" [أحمد].

(٣٥) "وكان يشير بأصبعه إذا دعا لا يحرّكها" [أبو داود].

(٣٦) "وأشار بالسبابة و لم يجاوز بصره إشارته" [مسلم].

(٣٧) «لا تقولوا هكذا ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله». [متفق عليه].

(٣٨) «قولوا: اللّهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وبارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد» [متفق عليه].

(٣٩) وكان رسول الله ﷺ يدعوا في صلاته: «اللهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» [].

وقال: «فليختر من المسألة ما شاء» [متفق عليه].

(٤٠) وكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يكون آخر ما يقول بين التشهّد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ وما أسرفتُ وما أنت أعلم به منّي أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلاّ أنت» [مسلم].

(٤١) أن أبا بكر قال لرسول الله ﷺ: علِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي. قال ﷺ: «قل اللّهم إنّي ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنّك أنت الغفور الرحيم» [متفق عليه].

(٤٢) وكان النبي ﷺ يقول في صلاته «اللهم إنّي أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً،وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم» [النسائي].

(٤٣) «مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم» [أحـــمد/أبو داود/الترمذي].

(٤٤) وكان إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثاً وقال «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» [].

(٤٥) وكان يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير. اللهم لا مانع لِما أعطيتَ ولا معطيَّ لِما منعتَ ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ» [متفق عليه].

(**٤٦**) «تسبِّحون وتكبِّرُون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرّة» [متفق عليه].

ويقول في تمام المائة "لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير" [مسلم].

(**٤٧**) وكان يقول: «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، لا إله إلاّ الله، ولا نعبد إلاّ إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلاّ الله مخلصين له الدِّين ولو كره الكافرون». [مسلم].

(**٤٨**) ويجب أن تكون القراءة في الصلاة بتدبّر وتأنّ. لأنّ المصلِّي يناجي ربه، كما جاء في الحديث: قال الله تعالى: (قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾**﴾ قال الله "حمدني عبدي"، فإذا قال: ﴿**ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾**﴾ قال الله: "أثنى عليّ عبدي"، فإذا قال ﴿**مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾**﴾ قال الله: "مجّدني عبدي"، فإذا قال ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾**﴾ قال الله: "هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل"، فإذا قال ﴿**ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾**﴾ قال الله: "هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل) [مسلم/النسائي].

وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلا اللّيل.

قال الله تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾**﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾**﴾ [الإنسان: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾**﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾**﴾ [آل عمران: ١٥-١٧].

وقال تعالى: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾**﴾ [آلم السجدة:١٦].

وقال تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات: ١٧].

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان النبي ﷺ يقوم من اللّيل حتى تتفطّر قدماه، فقلتُ له لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟" قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» [متفق عليه].

(٢) وعن عليّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ طرقه وفاطمة ليلاً فقال: «ألا تصليان؟» [متفق عليه].

(٣) وعن سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «"نعم الرجل عبد الله لو كان يصلِّي من اللّيل». قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من اللّيل إلاّ قليلاً. [متفق عليه].

(٤) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «يا عبد الله لا تكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل». [متفق عليه].

(٥) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ذُكر عند النبي ﷺ رجلٌ نام ليلة حتى أصبح قال: «ذلك رجل بال الشيطان في أذنيه» [متفق عليه].

(٦) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة عليك ليل طويلٌ فارقد، فإذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلَّتْ عقدة، فإن توضّأ انحلّت عقدة، فإن صلّى انحلّتْ عقده كلّها،فأصبح نشيطاً طيّب النفس،وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان» [متفق عليه].

(٧) وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرّم. وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة اللّيل» [مسلم].

(٨) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «صلاة اللّيل مثنى مثنى، فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة» [متفق عليه].

(٩) وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان ينام أول اللّيل ويقوم أخره فيصلِّي [متفق عليه].

(١٠) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "صلَّيتُ مع النبي ﷺ ليلةً، فلم يزل قائماً حتى هممتُ بأمر سوءٍ"، قيل وما هممتَ؟ قال: هممتُ أن أجلس وأدَعَهُ. [متفق عليه].

(١١) وعن جابر ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت» [مسلم].

(١٢) وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في اللّيل لساعة لا يوافقها رجلٌ مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كلّ ليلة» [مسلم].

(١٣) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ إذا قام من اللّيل افتتح صلاته بركعتين خفيفتين" [مسلم].

(١٤) وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِبَ له كأنّما قرأه من اللّيل» [متفق عليه].

والأفضل أن يداوم المسلمُ على صلاة النوافل التي كان يداوم عليها رسول الله ﷺ.

(١٥) عن أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبدٍ يصلِّي لله تعالى في كلّ يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير الفريضة إلاّ بنى الله له بيتاً في الجنة» [مسلم].

(١٦) وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «صليتُ مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد الجمعة، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء» [متفق عليه].

(١٧) عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الغداة" [البخاري].

(١٨) وقالت رضي الله عنها: "لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشدّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر" [متفق عليه].

(١٩) وعن عبد الله بن المغفل ﷺ قال: قال رسو الله ﷺ: «بين كل آذانين صلاة، بين كل آذانين صلاة، بين كل آذانين صلاة». قال في الثالثة «لمن شاء». [متفق عليه].

والأفضل أن تكون النوافل في البيت، لأنَّ ذلك أبعد من الرياء.

(٢٠) وفي الحديث: «فصلُّوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته، إلاّ المكتوبة» [البخاري].

(٢١) وكان ﷺ يأمر باتّخاذ المساجد في البيوت كما جاء في الحديث: "كنا نؤمر باتّخاذ المساجد في الدور وأن تُنَظَّفَ وتُطَيَّبَ" [أبو داود].

(٢٢) وفي الصحيح: أن أبا بكر ابتنى مسجداً بفناء داره وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم وهم يعجبون منه وينظرون عليه. [البخاري].

الصوم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرّم». [مسلم].

(٢) وقالت عائشة رضي الله عنها: "لم يكن النبي ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان، فإنه كان يصوم شعبان كله". وفي رواية: "كان يصوم شعبان إلاّ قليلاً". [متفق عليه].

(٣) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله من هذه الأيام». -يعني أيام العشر-. قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلاّ رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء». [البخاري].

(٤) عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سُئِلَ رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة، قال: «يكفّر السنة الماضية والباقية» [مسلم].

(٥) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه. [متفق عليه].

(٦) وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن صيام يوم عاشوراء. فقال: «يكفّر السنة الماضية». [مسلم].

(٧) وعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسو الله ﷺ سُئِلَ عن صوم يوم الاثنين. فقال: «ذلك يوم وُلدتُ فيه ويوم بعثتُ، أو أنزل عليّ فيه». [مسلم].

(٨) وعن قتادة بن ملحان رضي الله عنه قال: "كان رسول الله ﷺ يأمرنا بصيام أيام البيض ثلاثة عشر، وأربع عشر، وخمس عشر." [أبو داود].

(٩) وعن أنس ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظنُّ أن لا يصوم منه، ويصوم حتى نظنُّ أن لا يفطر منه شيئاً. وكان لا تشاء أن تراه من اللّيل مصلّياً إلاّ رأيته، ولا نائما إلاّ رأيته" [البخاري].

ذكر الله

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

ومما ورد في فضل الذكر من الأحاديث ما يأتي:

(١) «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربّه كمثل الحيّ والميت» [البخاري].

(٢) «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)» [متفق عليه].

(٣) «لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر، أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس» [مسلم].

(٤) «من قال" لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرّة كانت له عدل عشر رقاب، وكُتبت له مائة حسنة ومُحيت عنه مائة سيئة. وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاّ رجل عمِل أكثر منه». [متفق عليه].

(٥) وعن أبي موسى الأشعريّ ﷺ قال: قال رسو الله ﷺ: «ألا أدلّك على كنْز من كنوز الجنة»؟ فقلتُ: بلى يا رسول الله، قال: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله». [متفق عليه].



(٨) احتمالات الطريق

إنَّ المسلمين عليهم أن يسلكوا الطريق كما أمر الله عليهم أن يتبرءوا من أهل الشرك والجاهلية، وأن يدعوهم إلى الإسلام، وأن يجتمعوا على آصرة العقيدة، ويتآخوا في الله، وأن يصبروا على الأذى والفتن المتنوّعة الآتية من قِبل أهل الشرك والضلال. وعليهم أن يجاهدوا في الله حقّ جهاده، وأن يبذلوا الأنفس والأموال في سبيل الله،حتى لا تكون فتنة ويكون الدِّين كلّه لله. وعليهم بعد ذلك أن يستسلموا لقدر الله ويعلموا أن الله يفعل ما يريد، وأن النصر بيده، وأنه هو الذي يحدِّد نتيجة الصراع القائم بين أوليائه وأعدائه .. وليس لهم من الأمر شيء، ولكن الأمر كله لله. إنّهم إذا أدّوا ما عليهم، وبذلوا أقصى جهدهم، فقد نالوا مرادهم، وفازوا برضى الله وجنته، فلا تَهمّهم حينئذ نتيجة الصراع، ولمن تكون الدائرة في هذه الجولة.

قال سيــــد قطب في كتاب "معالم في الطريق":

هناك إشعاعٌ آخر تطلقه قصة أصحاب الأخدود وسورة البروج، حول طبيعة الدعوة إلى الله، وموقف الداعية أمام كل احتمال.

لقد شهد تاريخ الدعوة إلى الله نماذج منوعة من نِهايات في الأرض مختلفة للدعوات ..

شهد مصارع قوم نوح، وقوم هود، وقوم شعيب، وقوم لوط، ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد، مجرد النجاة. ولم يذكر القرآن للناجين دوراً بعد ذلك في الأرض والحياة. وهذه النماذج تقرّر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحياناً أن يعجِّل للمكذِّبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا، أما الجزاء الأوفى فهو مرصود لهم هناك.

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده، ونجاة موسى وقومه، مع التمكين للقوم في الأرض فترة كانوا فيها أصلح ما كانوا في تاريخهم. وإن لم يرتقوا قط إلى الاستقامة الكاملة، وإلى إقامة دين الله في الأرض منهجاً للحياة شاملاً .. وهذا نموذج غير النماذج الأولى.

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين استعصوا على الهدى والإيمان بمحمد ﷺ وانتصار المؤمنين انتصاراً كاملاً، مع انتصار العقيدة في نفوسهم انتصاراً عجيباً. وتم للمرة الوحيدة في تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمناً على الحياة في صورة لم تعرفها البشرية قط، من قبل ولا من بعد.

وشهد -كما رأينا- نموذج أصحاب الأخدود ..

وشهد نماذج أخرى أقلّ ظهوراً في سجل التاريخ الإيماني في القديم والحديث. وما يزال يشهد نماذج تتراوح بين هذه النهايات التي حفظها على مدار القرون.

ولم يكن بدّ من النموذج الذي يمثله حادث الأخدود، إلى جانب النماذج الأخرى. القريب منها والبعيد.

لم يكن بدّ من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون، ولا يؤخذ فيه الكافرون! ذلك ليستقرّ في حسّ المؤمنين -أصحاب دعوة الله- أنّهم قد يُدْعَوْن إلى نِهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله. وأن ليس لهم من الأمر شيء، إنّما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله!

إن عليهم أن يؤدُّوا واجبهم، ثم يذهبوا، وواجبهم أن يختاروا الله، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة، وأن يصدقوا الله في العمل والنية. ثم يفعل الله بِهم وبأعدائهم، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء. وينتهي بِهم إلى نِهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الإيمان، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه.

إنّهم أجراء عند الله. أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا، عمِلُوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير!
[هذا هو الطريق].

هذا مع أنّ وعد الله قاطعٌ في انتصار المؤمنين واستخلافهم في الأرض، ولكن الله هو الذي يحدِّد الوقت المناسب لهذا النصر، ويحدِّد الجيل الذي يتمّ هذا النصر بأيديهم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝٢٠ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾ [المجادلة: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: ٤٧].



(٩) مزالق الطريق

الخوف: إن إحساس الإنسان بالخوف عند ملاقاة الخطر شعورٌ فطريٌّ يعتري كل إنسان حتى الأنبياء والصالحين.

قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: ٦٧-٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ۝٣١﴾ [القصص: ٣١].

وقال تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۝١٨﴾ [الكهف: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦].

والخوف المذموم الذي لا يقبله الشرع نوعان:

(**الأول**) عبادة غير الله بالخوف، باعتقاد قدرته على إنزال الشرّ على من يريد، فيكون الإنسان الذي اعتقد ذلك خائفاً وجِلاً من غير الله، يسعى لإرضائه واتقاء شرّه وهذا من الشرك الاعتقادي.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود: ٥٣-٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢].

(الثاني) وهو ترك الواجب أو فعل المحرّم لأجل الخوف من الناس، وفاعل ذلك إذا لم يكن مكرهاً على ذلك يكون آثماً مرتكباً للحرام باختياره.

وشروط الإكراه هي:

١) أن يخالف القتل أو الضرب الشديد.

٢) أن يكون فورياً أو جرت العادة بعدم تخلّف عقوبة القتل أو الضرب إذا لم يفعل الحرام.

وأصل ذلك هو قصة عمار بن ياسر ﷺ لما عذّبه المشركون فتكلّم بالكفر، فقال له النبي ﷺ: "إن عادوا فَعُدْ" .

وأنزل الله تعالى: ﴿**مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦**﴾ [النحل: ١٠٦].

ويَجوز لمن أكره أن يتكلّم بالكفر، أو أن يفعل الحرام الذي لا يتعدّى ضرره إلى غيره، كأكل الميتة، وشرب الخمر، وما شابه ذلك. ولا يجوز له أن يفعل ما يتعدّى ضرره إلى غيره كقتل النفس، وإتلاف مال الغير، والزنى، وما شابه ذلك. كما جاء في لحديث: "المسلمُ أخو المسلمُ لا يظلمه ولا يسلمه" [متفق عليه].

ومن الناس من يقع في مزلق خطير، وينحرف انحرافاً فاحشاً بسبب الخوف، وذلك أنه يرى القوّة الهائلة الجبارة للكفار، والحركات السرّية والعلنية المسخَّرة لحرب الإسلام، والتي تدعمها الدول الكبرى بالأموال والأقلام ووسائل الإعلام، فيشعر أمامهم بالخوف والضعف والضآلة. فيزيّن له الشيطان أن يُخالف الشريعة من جوانب كثيرة، معتقداً استحالة العمل للإسلام إلاّ بِهذه الطريقة المهزومة. ولدى المؤمن من بيَّان ربّه ما يصدّه عن ذلك الطريق الملتوي. فهو يعلم:

(الأول) إن الله إذا أراد انتصار الإسلام على الجاهلية فإن ذلك واقعٌ لا محالة.

قال تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦**﴾ [القصص: ٥-٦].

فإرادة الله هذه كانت من وراء انتصار موسى وبني إسرائيل على فرعون وقومه. فتفيد الآية أن إرادة الله تتحقّق على كل حال، وأن المؤمنين عليهم أن يكونوا مؤمنين حقيقيين معظِّمين لأوامر الله وشرعه آخذين بالأسباب كي ينصرهم الله على أعدائهم ويمكنهم في الأرض.

فإن الله إذا أراد للإسلام النصر والتمكين فإن ذلك سيتمّ ولا يقدر الإنس والجنّ على إيقاف قدر إلهيّ مرسوم. وإذا لم يرد للإسلام ذلك في زمن من الأزمان وجولة من الجولات فإن ذلك لا يأتي ولا يتحقّق بطريق لم يأذن به الله. فالاستقامة إذاً ضروريّة للمؤمنين مهما تكن نتيجتها في قدر الله.

(الثاني) إن الله تعالى قد بيّن في كتابه الحالات التي للمؤمن فيها أن يخالف بعض الشريعة، وأن يقع في المحظور كحالة الإكراه وحالة الاضطرار في قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ**﴾ [البقرة: ١٧٣].

وإذا كانت هناك حالة أخرى يجوز للمسلم فيها الخروج عن الشريعة أو عن بعضها لبيّنها الله تعالى.

(الثالث) إن الخوف من البشر لا تنتهي بالإنسان إلى ذلك المستوى إلا حين تضعف معرفته بربِّه وما وصف به نفسه، فالله تعالى هو القائل عن نفسه :

﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾**﴾ [البروج: ١٦].

﴿**وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ**﴾ [الأنعام: ١٨].

﴿**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾**﴾ [التغابن: ١].

﴿**لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾**﴾ [الأنفال: ٨].

﴿**إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾**﴾ [الذاريات: ٥٨].

فإذا عرف الإنسان ربَّه بصفاته فلن يكون لغيره سلطان على نفسه، فيعبد ربه وإن كره الكارهون. ﴿**كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾**﴾ [العلق: ١٩].

الاستعجال :

إن الاستعجال مزلقٌ خطيرٌ قد يُسبّب فشلاً وانحطاطاً للحركة، فمن الناس من يحبّ أن يستعمل القوّة أمام كل صعوبة تواجهه، فيدخل معركةً لم يستعدّ لها ويواجه عدوّاً يَجهل قوّته وخطره، فينهزم من قريب. فيجب الاحتراز من هذا الصنف المتهوّر المستعجل، والقبض على يديه وتعليمه الصبر والأناة والسمع والطاعة للنظام الجماعي.

وقد أخبرنا الله تعالى في كتابه إن أشدّ الناس حماسة وطلباً للقتال قد يكونون أسرعهم اِنْهزاماً إذا جدّ الجدّ :

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦].

قال سيد قطب رحمه الله تعالى في (ظلال القرآن) :

"إن أشدّ الناس حَماسة واندفاعاً وتهوراً قد يكونون هم أشدّ الناس جزعاً واِنْهياراً وهزيمة عندما يجد الجدّ وتقع الواقعة، بل إنّ هذه قد تكون القاعدة ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة من عدم التقدير لحقيقة التكاليف، لا عن شجاعة واحتمال وإصرار، كما أنّها قد تكون منبعثة عن قلّة الاحتمال، قلّة احتمال الضيق والأذى والهزيمة، فتدفعهم قلّة الاحتمال إلى طلب الحركة والدفع والانتصار. حتى إذا وجهوا بِهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا وأشقّ مما تصوروا، فكانوا أول الصف جزعاً ونكولاً وانْهياراً، على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ويعدّون للأمر عدّته، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف. فيصبرون ويتمهلون ويعدّون للأمر عدته. والمتهورون المندفعون المتحمِّسون يحسبونَهم إذ ذاك ضعافاً، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور. وفي المعركة يتبيّن أي الفريقين أكثر احتمالاً، وأيّ الفريقين أبعد نظراً كذلك. وهذا ما يصوره لنا الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ﴾ [النساء: ٧٧].

التنطع والغرور

إن الله تعالى أوجب على المؤمن أن يأخذ كتاب الله بقوّة، وأن يكون شديداً في أمر الله لا يخاف في الله لومة لائم.

قال تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ﴾ [مريم: ١٢].

وقال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن الناس من يُخطئ في الشدّة والقوّة المطلوبة، فيجعل أوامر الله كلها واجبة، ولا يَجعل للمندوبات التي لا يأثم تاركها مكاناً، ويَجعل النواهي كلّها محرّمة، ويغفل عن المكروهات التي لا يأثم فاعلها.

إن القوّة المطلوبة هي أن تحافظ الحدود والأوامر والنواهي كما أنزل الله بدون زيادة ولا نقصان، وأن تعرف أن هناك عزائم ورخص، وأن الله يُحبّ أن تؤخذ رخصه كما يكره أن تؤتى معاصيه.

والتنطّع هو: "حَمل النفس على العزيمة في موطن الرخصة".

وقال رسول الله ﷺ: «ألا هلك المتنطّعون، ثلاثاً» [مسلم].

والمتنطِّعون هم المتعمِّقون الذين يجاوزون حدود الاعتدال في أخذ الأوامر والنواهي. والمتنطّع يكون مع انحرافه مغروراً معجباً بنفسه محتقراً للمؤمنين، سريع الوقوع في أعراضهم.

والتنطّع هو الذي جعل أحد الخوارج يقول لرسول الله ﷺ (اعدل فإنك لم تعدل)، وهو الذي جعلهم يكفّرون المبشّرين بالجنة من الصحابة رضوان الله عليهم، ويستحلُّون دماءهم. فيجب أن تعرف التنطّع والغلوّ في الدِّين من مزالق الطريق، ومن أخطر الأسباب الداعية إلى الاختلاف والتفرّق في الجماعة المسلمة الواحدة.

وقد قال ﷺ: «إياكم والغلوّ في الدِّين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدِّين» [أحـــمد/الترمذي].



(١٠) نهاية الطريق

إن الله تعالى يكشف للمؤمنين نِهاية الطريق والمصير الذي ينتظر المكذِّبين من الملأ والمستضعفين لتقوّي قلوبهم، وتصمد في وجه الطغيان حين تعلم أن أعداءهم مغلوبون على كل حال، وإن ظنُّوا أنّهم قد انتصروا في الدنيا وقتلوا دعاة الحقّ.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٤٨-٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١-٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۢۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٢٧-٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ

أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٩٠-١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: ٦٢-٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطفّفين: ٢٩-٣٦].

الفهرس

تم بعون الله وقدرته في مساء يوم الخميس: ٢٠/ربيع الأول/١٤٢٦ هـ